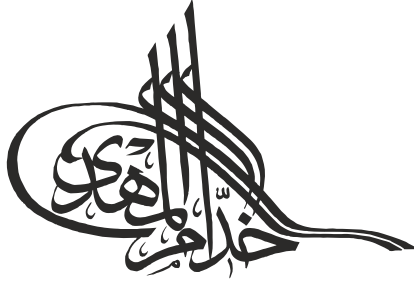


التَّوَطُّعَاتُ التَّسْعُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
وَعَجَلْنَا إِلَى آثَارِهِمْ يَوْمَ قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ

الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م



هيئة خدام المهدي عجل الله فرجه

هيئة تشييفية إسلامية تطوعية هدفها تنمية المجتمعات إيماناً
وفق رسالة أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

مكتب لندن: 00441753663103 - 00447447777994

THE MINOR LAND OF FADAK
WINDMILL ROAD
SL3 6HF

www.fadak.tv



مكتب الشيخ الحبيب في لندن
The Office of Sheikh al-Habib in London

www.alqatrah.net
alqatrah@gmail.com

التَّوْطِئَاتُ التَّسْعُ

فِي بَيَانِ مَنْهَجِيَّةِ أَهْلِ الْعَالَمِ الْأَوَّلِ

يَا سِرَّ الْحَبِيبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ *
وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ

* * *

الْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ عَلَى خَيْرِ بَرِيَّتِهِ
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَاللَّعْنَةُ وَالْعَذَابُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ مِنَ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

ديباجة

رغب إليّ بعض أهل العلم وطلبته أن أفرد التوطئات التي سبق وحرّرتها في مقدمة (الفاحشة) في كتاب مستقل، لاستحقاقها ذلك من حيث الكيف حسب رأيهم؛ إذ هي تتضمن مطالب علمية ومنهجية دقيقة، وتسهيلاً لتداولها من حيث الكم حسب تشخيصهم؛ إذ كتاب (الفاحشة) يقع في أكثر من ألف صفحة.

وقد كنت غير متحمس لهذا لأنني لم أرَ داعياً ضرورياً لهذا الأفراد، ثم نظرتُ في الأمر بعد الإلحاح فوجدت أنه من الخلق إذا ما كانت ثمة فوائد مزيدة، فحذفتُ من تلك التوطئات القديمة واحدةً كانت منحصرة ببيان علة تسمية كتاب (الفاحشة) بهذا الاسم، ونقّحتُ بعضها وزدتُ فيها، وأضفت إليها توطئتين جديدتين مهمتين، فصار المجموع كتاباً مستقلاً فيه مزيد فائدة إن شاء الله في بيان منهجية أهل العالم الأول وتأصيلاتها وتقاطعاتها.

وسمّيتُ الكتاب (التوطئات التسع) تيمناً بالآيات التسع التي وهبها الله تعالى للكليم عليه السلام. وأسأله سبحانه القبول وأن يبارك هذا الكتاب فيكون له الإسهام في تبديد الأوهام وإعادة صياغة التفكير العام لتعود الأمة إلى حيث ينبغي أن تكون في مسارها الدعوي والتبليغي؛ على ما يرضي الله ورسوله وحججه الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

التوطئة الأولى

■ لماذا ننشغل بالماضي؟

لماذا أشغلنا الله بمخازي الأمم الماضية؟! ألسنا أبناء اليوم؛ فلما شأنا بأبناء الأمس؟! ولماذا يتوجب علينا أن نستذكر بل ونتذكر موبقاتهم بدلا من أن ننصرف فقط إلى شؤون عصرنا ومتطلبات مستقبلنا؟!

وفي وحيه الذي أوجب على البشر تلاوته في كل عصر ومصر؛ لماذا يضطربنا الله إلى أن نقرأ بل ونردد «فضائح» شخصيات ماتت وقُبرَت منذ مئات بل ألوف السنين؟!

أي ضرورة في أن يعرّي الله لنا قابيل، ونمرود، وفرعون، وهامان، وقارون، وعافر ناقة صالح، وابن نوح الفاسد، وأشباههم؛ فيحكى لنا - وبتكرار في عشرات الآيات - عصيانهم وطغيانهم مع أنهم جميعا قد لقوا حتفهم وانتهت أحقابهم وولّت إلى غير رجعة؟!

وأي مُلحة في أن يقصّ الله في أعظم كتبه المنزلة قصص فساد أقوام مثل قوم ثمود، وقوم عاد، وبني إسرائيل، وأصحاب الأيكة، وغيرهم، مع أنهم جميعا قد هلكوا وانقرضوا؟!

ولماذا لم يتكتم الله على فضائح قوم لوط فلم يُعزب عنا قذارات شذوذهم وانحرافهم؟! ولم أشار إلى «خيانة» زوجته التي كانت تصعد فوق سطح بيته لتصفّق وتصفّر داعية الرجال إلى ممارسة فحشاء اللواط مع ضيوفه؟! ألم يكن الأحسن أن يحجب الله عنا هذه الصورة القبيحة صيانة لسمعة بيت نبيه فلا يُقال أن زوجته كانت قوّادة؟!

وإذا قيل أن هؤلاء جميعاً كانوا فسقةً فجرةً ظلمةً ولم يتوبوا فلماذا فضحهم الله في كتابه؟ فلماذا لم يتستر الله على زليخا التي راودت يوسف عن نفسه وحاولت إغواءه واستدراجه إلى الزنا، فكشف لنا عن أدق تفاصيل أفعالها الشائنة مع أنها قد تابت في ما بعد وزوجها الله نبيّه يوسف؟! ألم يكن الأجدر أن يخفي الله عنا هذه التفاصيل «الحرّة» إكراماً لنبيّه على الأقل إذ أصبحت هذه المرأة زوجته؟!

لماذا لا نتجاوز كل هذه القضايا التي أكل عليها الدهر وشرب ونتطلع فقط لحاضرنا ومستقبلنا؟! هل نحن مجبورون على البقاء أسرى للماضي وشخصياته باستحضار تلك الأحداث وحساسياتها دوماً وأبداً في قرآن يُتلّ ليلاً ونهاراً؟! إلى متى؟!

والجواب: إلى يوم يُبعثون! فإنك إن أردت لحضرك أن يكون منيراً ولمستقبلك أن يكون مشرقاً فلا بد لك من أن تستفيد من ماضيك وماضي من سبقك في الحياة، إذ من ذلك تستخلص العبر والدروس فيكون بناؤك لحضرك ومستقبلك بناءً سليماً.

وإذا أغمضت عينيك عن الماضي بما فيه من سلبيات وجرائم؛ فإنك بذلك ترتكب خطأً فادحاً، إذ لن تتعلم وستوقع نفسك لا محالة في أخطاء من سبقوك! سواء كان ذلك الخطأ دينياً أم دنيوياً، فهو على كل حال يوردك المهالك. وعلى هذا ينبغي الانفتاح دائماً على الماضي، لا الانزواء عنه.

والله الحكيم إنما أورد هذه القصص والوقائع والأحداث في كتابه المجيد كي يستخلص منها البشر أعظم الدروس، فإنه لا يؤثر في الإنسان شيء أكثر من تجربة مثيله الإنسان، لهذا سلّط الله الضوء على تجارب الأمم السابقة، علّ هذه الأمة وسائر الأمم الأخرى تعتبر فتصحّ مسارها وعلاقتها بالخالق جلّ وعلا.

■ لماذا التركيز على الشخصيات المنحرفة وأدق تفاصيلها؟

وإنما جاء التركيز في القرآن العظيم على الشخصيات المنحرفة، فأبرز الله تعالى جرائمها ومخازيها بأدق التفاصيل، كي يكون ذلك تحصينا للمؤمن من جهات عدّة، من أهمها عدم اغتراره بالظالمين والفاستدين والمنحرفين، مهما كان مظهرهم، ومهما كان موقعهم، فليس التمثّل بالدين والورع بكافٍ لاكتساب صاحبه الاحترام شرعا، وليست مصاحبة نبي من الأنبياء كافية لتبجيل صاحبها، كما أن مجرد زواج النبي من امرأة ما، لا يعني أنه يسبغ عليها ثوب القداسة ويوجب على الناس تعظيمها.

إنما اللازم دائما أن يُعمل الإنسان عقله فيبحث ويحقّق وينظر ويتفكّر، ليكون على بينة تصحّح موقفه من هذه الشخصية أو تلك، لا أن يكتفي فقط بوجهها الظاهري فيبني عليه، وإنما عليه أن يبحث عن «وجهها الآخر» الذي هو الباطن، فإذا وجد الباطن يطابق الظاهر في الصلاح، فإن عليه واجب احترام هذه الشخصية، وإن لم يجد، أي وجد وجهها آخر في الفساد، كان عليه أن يتخذ موقف العداء من هذه الشخصية.

والقرآن الكريم إنما يخاطب في الإنسان عقله بقصد تنشيطه وإيقاظه، ولذا فإن الله تعالى عندما يركّز آياته على «أدق التفاصيل» حتى ولو كانت حرجة وحساسة، وتتعلق بما يدور في بيوت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنه يقصد من وراء ذلك إيقاظ عقول البشر، وإفهامهم أن الإنسان مهما بلغ من مرتبة دينية ظاهرية، ومهما ارتبط بنبي أو رسول، فإنه يبقى معرّضا للانزلاق والوقوع في حبال الشيطان. و«التفاصيل» وحدها هي القادرة على ترسيخ هذا الاعتقاد في أذهان بني البشر، إذ الإجمال لا يكفي. كما أن «التصريح» في مثل هذه الموارد هو المطلوب لا «التلميح» إذ إن هذا الأخير يفتح باب التأويل إلى أن يُحرّف المعنى كليّةً.

لهذا أراد الله سبحانه أن ينبّه عباده - بصراحة تفصيلية - إلى خطورة الانزلاق في مسالك الشيطان والهوى والنفس الأمارة بالسوء، وأن هذا الانزلاق قد يصيب حتى أولئك الذين توفرت لهم أجواء دينية مثالية وبلغوا في مراتب الإيمان ما بلغوا، إلا أنهم في نتيجة الأمر سقطوا!

فهذا بلعم بن باعوراء امتلك ببيانه وعلمه اسم الله الأعظم، وحاز على ما يغبطه به الأولون والآخرين، لكن الشيطان استزله بعد ذلك فاتبع هواه وأصبح مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث! كما حدّث الله تعالى في فرقانه.

وهاتان امرأتان نوح ولوط عليهما السلام؛ حازتا على شرف تتمناه نساء العوالم أجمع وهو الاقتران بنبيين عظيمين مع ما تنطوي عليه الحياة المشتركة معهما من أجواء إيمانية مثالية، ومع ذا استدرجهما الشيطان إلى خيانة زوجيهما بالكفر والعصيان وإشاعة الفحشاء والمنكر والبغي! كما نصّ عليه الله سبحانه في كتابه.

وهؤلاء أبناء يعقوب عليه السلام، ولدوا من صلب الأنبياء وضمّهم بيت نبي عظيم ربّاهم وأدّبهم فأحسن تربيتهم وتأديبهم، ومع ذلك أوقعهم الشيطان في مهلكة الحسد لأخيهم يوسف عليه السلام، وتأمروا على قتله فألقوه في غيابة الجب! كما ذكر الله جل وعلا في تنزيله.

■ لماذا لا تُحجّب التفاصيل الحرجة إكراما للأنبياء عليهم السلام؟

ولا يصح حجب أمثال هذه الحقائق وتفاصيلها والادعاء بأن في الحجب مراعاة لكرامة الأنبياء! إذ إن بيانها لا يخلّ بكرامتهم (عليهم السلام) إطلاقاً، فإن على العقل أن يفرّق مثلاً بين النبي - أي نبي - وبين قومه وأصحابه، فلا يقول: «إن الطعن في قومه يلزم الطعن فيه لأننا بذلك ننسب إليه الفشل في أداء رسالته وتربية أصحابه!»! فأى شيء على النبي إذا بلغ

رسالة ربّه وأرشد قومه إلى الهدى فأمنوا به أولاً ثم من بعده كفروا وارتدّوا وضلّوا وأضلّوا وحرفوا الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيّه؟! وهو الذي حصل بعد رحيل كل الأنبياء.

وكذا على العقل أن يفرّق بين النبي - أي نبي - وبين أبنائه، فلا يقول: «إن كل ابن للنبي هو بالضرورة صالح عادل ولا يصح القدح فيه وإلا لاستلزم ذلك قدحاً في والده النبي لأنّه لم يُحسن تربيته!» فأَي شيء على النبي إذا ما أدّى واجبه في تربية أبنائه على أكمل وجه إلا أنهم مع هذا انحرفوا وعصوا؟! كما حصل مع ابن نوح، وأبناء يعقوب عليهما السلام.

وكذا على العقل أن يفرّق بين النبي - أي نبي - وبين زوجاته، فلا يقول: «إن كل زوجة للنبي تكون بالضرورة مؤمنة صالحة شريفة عفيفة محفوظة من كل دنس وإلا لاستدعى ذلك تدنيس وتلوّث سمعة زوجها النبي!» فأَي شيء على النبي إذا ما تزوّج امرأة وبالغ في نصحتها وإرشادها ومع ذلك أبت إلا الكفر والفسق والعصيان والفُحش؟! كما حصل مع زوجتي نوح ولوط عليهما السلام.

هذا والقرآن الكريم كتاب العقل، يلهمنا فيه ربّنا سبحانه إلى القواعد العقلية التي ينبغي علينا الاستناد إليها، ومن بين أهمّ تلك القواعد قاعدة تقديم الأهم على المهم، فعلى افتراض أن في ذكر قصة ما - كقصة يوسف مع امرأة العزيز زليخا - حرجاً من باب أن المرأة أضحت بعد ذلك زوجة لهذا النبي الكريم بعد توبتها، إلا أنه لا بد من ذكر ما فعلته قبل ذلك من أفعال شائنة، تغليباً للأهم وهو التبليغ والإرشاد بقصد تحقيق الهداية وأخذ العبرة؛ على المهم وهو صون سمعة زوجة نبي قد تابت من أفعالها. وهذا ما فعله الله تعالى في قرآنه إذ ذكر هذه القصة بكل تفاصيلها الحساسة والخرجة.

■ إشغال العقل بالماضي ليصفو تفكيره المستقبلي

نعم.. هو استدعاء للماضي، لكنه ضروري لبناء المستقبل على أسس سليمة. ثم نعم.. هو إشغال للعقل بما جرى في سالف الزمان، إلا أنه مهم لإرشاده نحو التفكير الصحيح الذي يقوده إلى الصراط المستقيم، فينجو ويفوز برضوان الله تعالى يوم الحساب.

إذا عرفت هذا؛ فستزول التساؤلات أو الشبهات التي تدور في ذهنك!

لا تقل: لماذا لا تتناسى ما وقع في الأزمان الغابرة لنمضي قدما معاً نحو المستقبل؟ إذ يُقال لك: لا مستقبل يصفو على ماضي مشوب وهكذا علّمنا القرآن إذ استحضر كل تلك الوقائع!

لا تقل: لماذا نثير حساسيات الماضي؟ إذ يُقال لك: هو أسلوب الله تعالى في التبليغ والإرشاد كما في القرآن!

لا تقل: لماذا لا نحجب تلك التفاصيل الحرجة؟ إذ يُقال لك: لم يحجبها الله تعالى في القرآن مع أنها تخصّ زوجة نبي تائبة فلماذا نحجبها نحن عمّن لم تتب ولم يدخل الإيمان قلبها أصلاً!

لا تقل: لماذا نسيء إلى نبينا بفضح زوجته؟ إذ يُقال لك: وهل أساء الله إلى النبيّين نوح ولوط عندما فضح زوجتيهما؟!

التوطئة الثانية

■ لماذا لا نتركها وقد ماتت وحسابها على الله؟

قد تقول: شئنا أم أبينا؛ فإن عائشة أهل رسول الله صلى الله عليه وآله، وحرمتها هي حرمة، أفلا يكون من الأدب والمروءة أن نحفظ رسول الله في أهله فلا نذكرها بسوء حتى لو أخطأت؟! ألم يمرّ عليك قول الشاعر:

فيا حميرا سُبِّكَ محَرَّمٌ لأجلِ عَيْنِ أَلْفِ عَيْنٍ تُكْرَمُ

فلماذا نتكلف ونُقحم أنفسنا في ما بين النبي وأهله ولعلنا بذلك نُؤذيه؟! إن كانت قد أخطأت فحسابها على الله، والنبي هو المعني بأمرها يوم القيامة لا نحن. وما يدرينا لعل الله يغفر لها ما ارتكبتها إكراما لرسوله صلى الله عليه وآله! أفلا يجدر بنا أن نكفّ ألسنتنا عن الخوض في شأنها؟!

والجواب: كلا! إنها لم تعد أهلا لرسول الله صلى الله عليه وآله! ذلك لأن التي تخون زوجها لا يظل لها هذا الاعتبار، وقد تحققت خيانة عائشة له في كثير من الموارد، كمشاركتها في سَمِّه وقتله، وإيذائها لابنته، وخروجها على وصيه، وتسببها في رشق جنازة سبطه، وتحريفها لأحكام دينه، وإدخالها الرجال الأجانب في بيته.

وإذا تحققت خيانة المرأة لبعْلِها، انقطعت بينهما تلك العلة الاعتبارية، فلا تكون حرمتها من حرمة، ولا تعدّ من أهله. وقد أكّدت النصوص الدينية الماثورة عن الرسول وأهل بيته (صلوات الله عليهم) ذلك في شأن عائشة خاصة.

ثم على فرض أنها ظلّت أهلاً له، فإن ذلك ليس بمانع شرعي من توجيه التهمة لها إذا ما أجمرت، ومحاسبتها على ما ارتكبت، ولا يكون في ذلك هتكاً لحرمة زوجها، فإن الشرع والعرف يفرّقان بين المرء وزوجه في هذه الموارد، فإنها هي وصلة مستعارة تجري مجرى المنفعة المستأجرة كالأمة المسترقّة، وعلقتها بزوجه إنما قد حصلت بالسبب لا بالنسب، والسبب منقطع بخلاف النسب.

بل وحتى مع النسب الذي لا ينقطع، فلا حرج في توجيه التهمة إلى البنت أو الابن ولا يسوء ذلك الأب في شيء إذا أحسن التربية ومع ذلك أصرت البنت أو أصرّ الابن على سلوك سبيل الضلال والفساد والغواية، فيكون ذلك سبباً لانقطاع العلة الاعتبارية بينهما، فهذا كتاب الله تعالى يحكي أن نوحاً (عليه السلام) نادى ربّه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فأجابه الله تعالى: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾! وعلّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾^(١).

وهكذا الحال بالنسبة لعائشة، فإنها وإن كانت زوجة لرسول الله صلى الله عليه وآله، إلا أنها ليست من أهله وفق هذا الاعتبار، لأنها «عمل غير صالح»، سيما وأنها ارتبطت برسول الله (صلى الله عليه وآله) بالسبب المنقطع، لا بالنسب غير المنقطع. مضافاً إلى أن ما نجرّمها به إنما وقع بعد استشهاد ورعيه (صلى الله عليه وآله) فتكون العلة بينهما أكثر انقطاعاً. فتدبر.

ولو أننا أوجبنا حفظ المرء في أهله على معنى عدم توجيه التهمة لهم وعدم بيان جرائمهم؛ لوجب أن نحفظ آدم في ابنه قابيل، ونوح في زوجته وابنه، ولوط في زوجته، بل وأن نحفظ كل من آمن واتقى في أهله وإن كانوا كفراً فسقةً فجرةً ظلمةً! وأن نردّد كالبيغاء: لأجل عين ألف عين تُكرم! فلا نفتص من القاتل إذا كان أبوه صالحاً! ولا نجري الحد على الزانية إذا كان زوجها تقيّاً! ولا يقول عاقل بهذا.

■ أهل حفظ حرمة رسول الله ﷺ حتى نحفظ حرمتها!■

ثم إن عائشة بنفسها لم تحفظ رسول الله (صلى الله عليه وآله) فانتهكت حرمة حين نسبت له القبايح والشائعات وأباحت باسمه (رضاح الكبير) مثلاً، كما لم تحفظه في أهله المقربين فانتهكت حرمتهم رغم أنه أوصى بهم وأبلغ عن الله عز وجل وجوب مودّتهم وطاعتهم وذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. (١) فكان من أفعالها النكراء بحقهم ما سوّد وجهها إلى يوم القيامة! ويصحّ إذ ذاك أن تُقابَل بالمثل، فلا تُحَفِّظَ حرمتها إن كانت لها حرمة، لأن الحرّات قصاص كما قال الله تعالى: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اغْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اغْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾. (٢)

وها نحن نردّ عليها اعتداءها على رسول الله وأهل بيته الأطهار صلوات الله عليهم، فلا نكفّ ألسنتنا لأنها لم تكفّ لسانها، على أننا إنما نذكر عنها ما هو حق، وما يجعل الناس تحذر من الاغترار بها واتباعها وتطبيق تعاليمها المخالفة لشرعية سيد الأنام صلى الله عليه وآله، لا كما فعلت هي من إطالة لسانها بالباطل على ساداتها المعصومين عليهم أفضل التحية والسلام، المعصومين بنص الكتاب الكريم.

(١) الشورى: ٢٤.

(٢) البقرة: ١٩٤.

■ بل يضاعف لها العذاب ضعفين

ودعوى أن الله قد يغفر لها إكراما لنبيه غير مسموعة، فإنه لا ينقض الشكُّ اليقين، بل إنها لو تمت لأبطلت أصل العدل الإلهي، إذ يحق لأخرى أجرمت ولم يغفر الله لها أن تصيح يوم القيامة: «إلهي! عجباً غفرت لعائشة ولم تغفر لي مع أننا اشتركنا في الذنب نفسه! وقد غفرت لها لأنها زوجة نبيك فحسب وحرمتني أنا من الغفران لأنني لم أكن إلا زوجة أحد من خلقك! فلم لم تزوجني نبيك لكيلا تُحتسب جرائمي وتغفر لي؟! إن هذا لظلم!»

فلا يكون لإثبات العدل الإلهي بعد هذا الفرض إلا أن يغفر الله تعالى لتلك المرأة أيضاً ولكل من أكرم وأجرمت حتى لا يكون لأحد من الخلق حجة على الله تعالى في أنه ميز امرأة عن سائر المذنبين وغفر لها لمجرد كونها قد تزوجت في الدنيا رسوله. فإذا قلنا بذلك لبطل العقاب! ولأبطلنا وجود جهنم إذ لن يعذب فيها أحد! سيما وأن المخالفين يقولون بغفران ذنوب كل من يسمونهم بالصحابة، فيصح أن يعترض سائر الخلق على ذلك أيضاً يوم القيامة لأنهم أكرموا مثل جرائمهم وحرّموا من الغفران لمجرد أنهم لم يصحبوا النبي وكان ذلك قضاء من الله وقدر لا دخل لهم فيه!

وإذ عرفت سخافة هذه الدعوى فلا يكون أمامك لإثبات العدل الإلهي إلا الإقرار بأن زوجة النبي (صلى الله عليه وآله) تُعاقب وتعذب يوم القيامة على ما ارتكبه من ذنوب وجرائم وفواحش كسائر النساء، بل إنها تعذب عذاباً مضاعفاً دونهن! وهذا صريح ما أخبرنا به الله تعالى إذ قال: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾^(١).

أفهل تعترض الآن على كلام الله عز وجل؟! اصْحُ يا هذا وأخرج من ذهنك وهم تقديس امرأة لمجرد كونها زوجة لنبي، فإنما المعيار عند الله هو التقوى، فإذا كانت التقوى في تلك المرأة فأنعم بها وأكرم، وإن لم تكن فبُعدا لها وتعسا. أليس الله يقول: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُّوحٍ وَامْرَأَةٌ لُّوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾.^(١)

فلتدخل عائشة النار مع الداخلين لخيانتها رسول الله صلى الله عليه وآله! فما شأنك أنت لتحتج وتعترض؟!

(١) التحريم: ١١.

التوطئة الثالثة

■ لماذا لا نستتر على الناس معاييبهم؟

قد تقول: سلّمنا أن لعائشة بعض المعاييب والعثرات، لكن مع هذا؛ كيف نسوّغ لأنفسنا كشفها وإذاعتها؟ ألم تأمرنا الشريعة بالاستتر على الناس في أخطائهم التي اطلعنا عليها؟ فلماذا نفضحها بذكر معاييبها ونخالف أخلاقيات الإسلام؟ وأي فائدة في هذا كلّ؟

والجواب: إن في تعبيرك بأن لها «بعض المعاييب والعثرات» استهانة واستخفافاً بحجم وكمّ ما أحدثته على مرّ تاريخها الأسود! فإنك لو اطلعت على تاريخها لوجدتها مزبلة ليس ثمة أنتن منها وقد جمعت كل الأوساخ والرذائل والموبقات التي عرفتها البشرية في امرأة! فهي في الإجرام مصّاصة دماء! وفي الغدر حيّة رقطاء! وفي المكر سحليّة حرباء! وفي العهر محترفة بغاء! ومثل هذه لا يصح لك أن تقول أن لها فقط «بعض المعاييب والعثرات» وكأنها كانت بالأصل ذات دين واستقامة! هذا أولاً.

وأما ثانياً؛ فإن الشريعة المقدسة وإن كانت أمرتنا بالاستتر على معاييب الناس إلا أنها قيّدت ذلك بأن يكون المتسترّ عليه مسلماً مؤمناً، أما الكافر والمنافق فخارجان عن ذلك، ويجوز بل يجب في حالات فضحها وإذاعة معاييبها.

ولو أنك دققّت في النصوص الشرعية لعرفتَ هذا الحكم، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على ما روته العامة: «من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».^(١) فالتفت إلى كلمة (مسلماً) أي أنه يجب أن يكون مسلماً حتى يشملته حكم الغصّ والستر.

وقال الإمام الصادق (صلوات الله وسلامه عليه) على ما روته الخاصة: «من ستر على مؤمن عورة يخافها ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة».^(٢) وكذا قوله عليه السلام: «من اطلع من مؤمن على ذنب أو سيئة فافشى ذلك عليه ولم يكتمها ولم يستغفر الله له؛ كان عند الله كعاملها وعليه وزر ذلك الذي أفشاه عليه، وكان مغفوراً لعاملها، وكان عقابه ما أفشى عليه في الدنيا، مستور عليه في الآخرة، ثم يجد الله أكرم من أن يثني عليه عقاباً في الآخرة».^(٣) فالتفت إلى كلمة (مؤمن) أي أنه يجب أن يكون مؤمناً حتى يشملته حكم الغصّ والستر.

وعائشة لم تكن مسلمة ولا مؤمنة! وإنما هي كافرة منافقة! فلا يشملها هذا الحكم. فإن قلت: ما الدليل على كونها كافرة منافقة؟ قلنا لك: إن مطالبتك إيانا بالدليل تستلزم جواز عرض مثالبها وذكر معاييبها الناقضة للإسلام والإيمان لأنها هي الأدلة المطلوبة! فهل لك أن تتراجع عن ذلك لتثيت قولك السابق أم تستمر معنا؟! فإنه ليس أمامك إلا قولاً من قولين؛ إما أن تقول بحرمة كشف المعاييب حرمة مطلقة، وإما أن تقول بالحرمة المقيّدة بما لو كان المكشوف عن معاييبه مسلماً مؤمناً.

(١) صحيح البخاري ج ٣ ص ٩٨.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٢٠٠، و(العورة) في الحديث كل ما يسوء الإنسان ظهوره، كمعاصيه مثلاً.

(٣) الاختصاص للمفيد ص ٣٢.

فإن قلت بالأول؛ لخالف في ذلك اتفاق المسلمين أجمع، فإنهم بمختلف مذاهبهم ومشاربهم لا يتورعون عن كشف معائب عبد الله بن أبي بن سلول^(١) مثلاً مع أنه كان ممن يُظهر الإسلام وكان مصاحباً للنبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) حتى إذا مات صلى عليه! فإذا اعترضت قالوا لك: إنما نكشف معايبه ونذيع فضائحه لثبوت أنه كان منافقاً غير مسلم باطنا، ومثل هذا يكون خارجاً عن حكم التستر على معايبه. وهذا الثبوت تحصل استناداً إلى أدلة سمعية تورث اليقين والاطمئنان، وهي ذاتها التي نذيعها ونكشفها ليعرف الناس حقيقته.

وإن قلت بالثاني؛ رددنا الكلام عليك في المصاديق فطالبنك بأن تستمع لتقف على أن هذا المصدق من الناس هل هو مسلم مؤمن حتى يحرم فضحه أم لا، فلا بد لك من الإذعان بجواز كشف معايبه حينها لترأها وتنظر فيها. وعلى هذا فيصح كشف معائب عائشة ولو من باب المقدمة.

■ علم الرجال.. علم تتبع معائب الناس!

وأما ثالثاً؛ فإن علماء المسلمين تراهم قد أفردوا علماً خاصاً يتفحص أحوال الناس ويفتش عن مثالبهم ونواقصهم ومعائبهم وكل ما يقدح في تدينهم! ومع ذلك لم يكن لأحد أن يعترض بأن ذلك مخالف لأخلاقيات الإسلام، أو أنه غيبة لا تجوز، أو أنه مخالف للحديث الشريف: «اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم»^(٢).

(١) أحد كبار المنافقين في المدينة المنورة زمن رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان (لعنة الله عليه) قد تأمر غير مرة على النبي وآذاه. ومع ذلك صلى عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) حينها هلك تأليفاً لقلوب قومه وترغيباً لهم بالتزام الإسلام.

(٢) الحديث منسوب تارة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) كما في سنن أبي داود ج ٢ ص ٤٥٦، وأخرى =

هذا العلم هو «علم الرجال» كما هو الاصطلاح عندنا، أو «علم الجرح والتعديل» كما عند مخالفينا، وغرضه بيان أحوال الرواة والمحدثين لتمييز الثقة العدل منهم عن غيره، وفيه تجد ذكر ما لا يخص من المعاييب المنسوبة لأشخاص بعينهم! فهذا كذاب وذاك مدلس، وهذا وضاع وذاك مخلط، وهذا فاسق وذاك خبيث، وهذا دجال وذاك منكر، وهذا هالك وذاك تالف.. إلى آخر تلك النعوت المقرونة ببيان ما ارتكبه هؤلاء من الجرائم والموبقات التي كانت سببا لجرحهم وإسقاط وثاقتهم وعدالتهم، ومنها مثل القتل وشرب الخمر وفعل الفاحشة وغيرها.

وتبرير العلماء لتوغلهم في هذا المضمار مع ما يلازمه من فضح الناس والأموات منهم تحديدا؛ هو أن هؤلاء الرواة ينقلون لنا أحكام الدين في أحاديثهم، فلا بد من إحراز وثاقتهم وعدالتهم حتى يصحّ التعبد بأحاديثهم ورواياتهم. ولو أننا أغضينا الطرف عن ذلك وقبلنا بكل ما رواه هؤلاء لنا لوقع الفساد في الدين، ولتغيرت أحكام الشريعة، وعليه فلا جرم أن نتذكر معاييب هؤلاء وأن نذيعها لأن أحكام الشريعة المقدسة أولى بالتحفظ من سمعة بعض الناس، وحفظ أحكام الشريعة إنما يكون بالتثبت من الرواة الثقات العدول الذين يطمئن إلى نقلهم. ولكي نميز منهم الفسقة والفجرة والكاذبة، وكذا الضعاف والمهملين، لا مناص من الفحص في أحوالهم وتوار يخهم وسيرهم والوقوف على أفعالهم، وهذا هو التبيين وقد أمرنا الله تعالى به في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(١).

= إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) كما في البحار ج ٧٢ ص ٢٣٩ عن طريق المخالفين أيضا.

(١) الحجرات: ٧. ومداول الآية وجوب التبيين في النبأ والمنبئ، أي الخبر والمخبر، وردّ خبر الفاسق بل كل من ليس بثقة في النقل أو مجهول الحال لأنه قد يصيب القوم بجهالة وهو التعليل الوارد في ذيل الآية، هذا إلا إذا تبين صدقه في هذا المورد بقرينة أو مؤيد خارجي مثلا.

هذا التبرير هو ذاته الذي نسوقه هنا، فإن عائشة هي على أقل تقدير من جملة الرواة، بل الرواة المكثرين حيث إن ما وصلنا من رواياتها يتجاوز الألفين على أقل تقدير!^(١) وهو عدد مهول لا يمكننا أن نُهمله أو نُهمل صاحبه، سيّما وأنا نجد في تلكم الروايات ما يؤسس لممارسات «مخزية» باسم الدين كرضاع الكبير مثلاً! فلا بد إذن من تفحص وتبين حال هذه المرأة والوقوف على سيرتها في حياتها لنعرف إن كانت ممن يصح الأخذ عنه أم لا يصح، وإذا وجدنا بعد البحث والتحقيق أنه لا يصح فلا بد من أن نعرض رذائلها ومثالبها ومخازيها حتى يتحاشى المسلمون الأخذ عنها، وفي ذلك حفظٌ للدين من الانحراف وضمانٌ لبقائه نقياً بلا شوائب، وهو الهدف الأسمى والأهم الذي يضطرنا إلى هذا العرض، أو سمّه الفضح إن شئت، تماماً كما اضطر علماء الرجال إليه.

■ الشريعة أمرتنا بالإكثار من السب!

وكما أمرتنا الشريعة المقدسة بأن نستتر على المؤمن عيوبه؛ كذلك أمرتنا في المقابل بأن نذيع وننشر عيوب المبتدع، بل وأمرتنا بأن نكثر الواقعة فيه ولو بالسبّ والشتم حتى يحذرهم الناس ولا يتعلّمون من بدعه، فقد قال رسول الله الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم، وأكثروا من سبّهم والقول فيهم والواقعة، وباهتوهم كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام ويحذرهم الناس ولا يتعلمون من بدعهم، يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة».^(٢)

(١) وقد أوصلها بعض المتبعين المعاصرين من المخالفين إلى ما يربو على خمسة آلاف!

(٢) الكافي ج ٢ ص ٣٧٥. و(الريب) بمعنى الشك والمقصود بأهله أولئك الذين يشكون المؤمنين في عقائدهم وأحكام دينهم. و(باهتوهم) بمعنى أوقعوهم في الدهشة والتحير بمخاصمتهم بالحجة وكسرهم بالبرهان حتى يُفحموا ولا يجدوا جواباً كما قال سبحانه: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾. البقرة: ٢٥٩.

وهكذا تجد أن الشريعة حكيمة، فهي وإن حرّمت الغيبة وإفشاء معايب الناس تحريماً غليظاً إلا أنها استنتت من ذلك ما هو ضروري لحفظ نفس الشريعة أو حفظ حقوق الناس، ولذا تجد أن الفقهاء يذكرون موارد كثيرة لهذا الاستثناء مثل جرح شاهد المدّعي بذكر معايبه حين الترافع إلى القاضي دفاعاً، وكذا عند طلب المستشار النصيحة، وعند شكاية المتظلم في صورة ظلمه. كما خرج بالاستثناء الفاسق المتجاهر بفسقه، والذي يتوقف ردعه عن فعل المنكر على إشاعة ذلك عنه في الناس ليتحقق ذمّه ويرتدع.. إلى غيرها من الموارد المبحوثة في المتون الفقهية.

وإذا تأملت ما ذكرناه جيداً؛ تعرف الفائدة من وراء طرح شخصية عائشة وأضرارها على بساط البحث وبيان مخازيها وردائلها، فإن هذه المرأة الخبيثة قلبت دين الإسلام رأساً على عقب تحريفاً وتزويراً!

التوطئة الرابعة

■ لماذا لا نحترم رموز الغير درءاً للفتنة؟

لربما تستنكر قائلاً: لتكن عائشة أم الشرور؛ إلا أنها اليوم - وإن كرهنا - رمز مقدّس عند المخالفين، لا يعظّمون امرأة في الوجود مثل تعظيمهم إياها! فلماذا نستفزهم ونضع الحواجز النفسية بيننا وبينهم بثلبنا لها؟ بل يجب أن تتغاضى عن ذلك ونكفّ عنه حفاظاً على تماسك المجتمع ودراءً للإحن الطائفية، كما أن نشرنا مثالبها قد يتسبب في تناول القوم على سادتنا من أهل بيت العصمة (صلوات الله عليهم) من باب الردّ بالمثل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.^(١) فالصواب إذن أن نطوي هذه الصفحات التاريخية وأن نبقيها مكتومة في بطون المراجع والمصادر.

والجواب: إن استنكارك هذا مردود من جهات عدة.

الجهة الأولى؛ إنها صارت عائشة عند المخالفين اليوم رمزا مقدسا لمجهولية مثالبها وعدم انكشاف «الوجه الآخر» لها، فلو سقط عنها ما دُثِّرَتْ به لبانت عوراتها ولأدى ذلك إلى تنفّر الناس منها، فاللازم عليك أن تحثّ على ذلك لتتلاشى هذه القداسة الزائفة، لأنها إذا تلاشت لتصلح المجتمع مع نفسه ولتحقق فيه الوئام والانسجام والتماسك التام لزوال أسباب الخلاف في ما بين فئاته وطوائفه، وهذا أجدى نفعاً من الكبت لأنه لن يؤدي إلى ما تشده من

(١) الأنعام: ١٠٩.

التماسك والوحدة، ودونك الواقع التاريخي الذي أثبت أنه مهما حاولت بعض الطوائف إخفاء أو مواراة أسباب الخلاف فإنها تعود لتطفو على السطح من جديد مؤدية إلى أسوأ الكوارث، ذلك لأن التاريخ لا يمكن إلغاؤه، وما حوته الكتب والمصادر لا يمكن طمسه، ومع أدنى احتكاك طائفي تُستعار أسباب الخلاف التاريخية وتُستخرج من بطون الكتب من جديد لتستعر بها النار! والخلل هو في أن أرباب الطوائف لا يفكرون في إخماد تلك النار جذريا وإنما يعمدون إلى تطويقها فقط، فلا يطرح كلٌّ منهم ما لديه من أسباب الخلاف بصراحة وجرأة تنزع الحساسية الجماهيرية منها ومن مناقشتها؛ وإنما يمتنعون الحديث عنها بذريعة المحافظة على وحدة المجتمع فيبقونها في الأفتدة والصدور مشتعلة لتنفجر بعد ذلك خارجها انفجارا لا يمكن أن يُسيطر عليه!

■ حرية طرح الخلافات تؤدي إلى تصالح طوائف المجتمع

إنما الصواب والصالح هو في أن تُتاح حرية طرح ومناقشة المسائل الدينية الخلافية بكل صراحة، فإن هذه الصراحة هي التي تجعل كل طرف يستوعب ما لدى الآخر دون شعور بالمخادعة أو المجاملة، فتوضع النقاط على الحروف وتتضح الصورة كما هي أمام المجتمع، وحينها يمكن للمجتمع أن يتخذ قراره بعد وقوفه على الحقائق. ثم إن كشف الغطاء عن التناقضات الدينية وطرحها للعلن هو الذي يؤدي إلى نزع الحساسية عنها وعن مناقشتها، لأن المجتمع سيتقبل واقع هذا التناقض وسيعتاد عليه، وسيؤطره مع مرور الوقت بأطر قانونية تضمنه.

نعم، قد يكون البدء بالسير في هذه الطريق صعبا، وقد ينطوي على بعض المخاطر، وقد يتسبب في وقوع بعض الاشتباكات أو حتى الخسائر البشرية، إلا أنه في نهاية المطاف يكون في صالح المجتمع، لأن المجتمع سيعرف الحقائق الدينية المرتبطة بكل طرف وسيقف على

التناقضات والخلافات كما هي، ومع تنامي الوعي وتطور العلم فإنه شيئاً فشيئاً يقتنع ويصطف إلى جانب المحقِّ وصاحب الحجة الأقوى من تلك الأطراف، فيتوَّحد من جديد على هذا الأساس. وحتى إذا افترضنا عدم توَّحده فإن مجرد طرح التناقضات الدينية للمناقشات العلنية وإتاحة الحرية للناس في تداولها يجعل المجتمع يعتاد عليها ولا يتحسَّس منها، فتغدو الطوائف متصالحة مع بعضها بعضاً مع إقرارها باختلافاتها وتناقضاتها، ولا يخفى أن في هذا الصالح العام.

وإذا أردت مثالا واقعياً فخذ المجتمعات الغربية، فإنك تجد فيها اليهودي يحارب جنباً إلى جنب النصراني في الجيش الوطني الواحد، مع أن الأول يعلم بأن الثاني يراه كافراً مخلداً في النار لعدم أتباعه عيسى المسيح عليه السلام، والثاني يعلم أن الأول يراه كذلك لا يتابعه بل ويطعن في (إلهه) قائلاً أنه ابن زنا والعياذ بالله! فما الذي أوصل المجتمعات الغربية إلى هذا المستوى من المشاركة الوطنية والتصالح والانسجام رغم هذه التناقضات الدينية والمذهبية الهائلة؟ إنه ما أسلفناه.

أما في مجتمعاتنا الشرقية المتخلفة فلأن حق الإنسان في التعبير عن معتقده وما يتناقض فيه مع غيره محظور؛ فإنك تجد هذا التنافر الشديد ما بين طوائف المجتمع وفئاته وشرائحه. فالمطلوب إذن هو رفع هذه السدود، وذلك لا يكون إلا على أساس المصارحة.

وما نحن ماضون عليه يصبُّ في هذا المصبِّ، وهو المصارحة والتبصير بالحقائق حتى يستوعب الآخر ما عندنا، فإن المخالفين جميعاً يعلمون بأن الشيعة يكرهون امرأة اسمها عائشة بنت أبي بكر، ويلعنونها ويتبرأون منها، لا تكاد تجد أحداً من المخالفين لا يعرف هذه الحقيقة عن الشيعة، إلا أن الذي لا يعرفونه هو أسباب موقف الشيعة المتشدد هذا من عائشة، وعلى ماذا استندوا لاتخاذها؟ وما هي مبرراتهم الشرعية فيه؟

■ صارحهم لتكسبهم فالإنسان عدو ما يجهل

ولأن معظم من ينطق باسم التشيع اليوم مريض بمرض الانهزامية ويفتقد الشجاعة المطلوبة؛ فإن تساؤلات المخالفين عن أسباب بغض الشيعة لعائشة تبقى بلا جواب، والإنسان بطبعه عدو ما يجهل، لذا تجد المخالفين بسبب جهلهم وعدم اطلاعهم على مبررات الشيعة في هذه المسألة من واقع ما ارتكبته عائشة من عظام الجرائم؛ تجدهم يمثلون غيظا وحقدا على كل شيوعي، إذ هم يتصورون أن عداء لعائشة مرجعه الأهواء مثلا، لا أنه مبني على صميم التعاليم الإلهية التي توجب على المرء معاداة أعداء الله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام.

والذي يطلب كتمان هذه الحقائق والأدلة والمبررات بدعوى المحافظة على وحدة وتماسك المجتمع؛ إنما يغذي موجة الحقد على الشيعة دون أن يدري! وإلا فماذا يتوقع؟ هل يتوقع أن المخالفين بسبب هذا الكتمان سيكذبون أنفسهم وسيعتقدون بأن الشيعة لا يكرهون عائشة بل يحبونها؟! أم أنهم على العكس من ذلك سيتيقنون من أن الشيعة يخادعونهم بكتماهم لحقيقة مشاعرهم تجاه عائشة؟! خاصة وأن بعض المتملقين من المحسوبين على الشيعة لا يستحون أمامهم من التفوه بعبارة من مثل: «أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها» فيما هم من ورائهم لا يذكرون اسمها إلا متبوعا باللعنات!

الجهة الثانية؛ لا كلام في ضرورة أن نتحاشى خلق حاجز نفسي بيننا وبين أتباع أية ملة بما فيها ملة البكرين، بيد أن ذلك التحاشي يجب أن يكون حسب الضوابط الشرعية، فإذا استدعى الإرشاد والصدع بالحق تكوّن هذا الحاجز فلا بد من القبول، أما أن نضحّي ببيان الحق من أجل الحيلولة دون تكوّن هذا الحاجز؛ فذلك أمر مرفوض شرعا.

وبعبارة أخرى؛ إن الحرص على عدم تنفير الناس هو أمر مهم، إلا أنه لا يستلزم ترك بيان الحق والتخلي عن وظيفة التبليغ الديني والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك أمر أهم، والقاعدة العقلية التي يصححها الشرع هي «تقديم الأهم على المهم». وإنما يمكن تحاشي التنفير وخلق الحواجز النفسية بالمخالطة بالمعروف والأخلاق الرفيعة وما إلى ذلك مما لا يستدعي تنازلاً عن الحق أو ثوابته، أو تراجعاً عن إعلانه وبيانه. فالمؤمن بقدر ما يكون ليّناً في تعامله مع الآخرين؛ فإنه يكون حازماً في كل ما يتصل بالدين، ولذا قال مولانا أمير المؤمنين (صلوات الله وسلامه عليه) أن من علامات المؤمن: «حزمٌ في لين».^(١)

■ كتاب الله بيننا وبين من يخالفوننا في المنهج الدعوي

وإذا أردت مزيداً من الإيضاح فتمعن في هذه الأمثلة:

• مع أن الله تعالى نهى عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢) إلا أنه في مواضع كثيرة أخرى وصف أهل الكتاب بالكفر والفسق والبغي والعصيان وقسوة القلب! ولعنهم ولعن أسلافهم! وأوعدهم نار جهنم! وعبر عنهم بأنهم شر البرية! بل وشبه علماءهم بالحمير!

فكان مما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ

(١) البحار ج ٧٥ ص ٢٥.

(٢) العنكبوت: ٤٧.

(٣) البينة: ٧.

أَنِّي يُؤْفَكُونَ»^(١) وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾^(٢)
وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾^(٣)
وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ
ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ
نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجُبِّ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ
الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾^(٦) وقال تعالى:
﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٧) وقال تعالى:
﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٨).

(١) التوبة: ٣٠.

(٢) المائدة: ٦٥.

(٣) آل عمران: ٢٠.

(٤) آل عمران: ١٨٨.

(٥) النساء: ٤٨.

(٦) النساء: ٥٢ - ٥٣.

(٧) الحديد: ١٧.

(٨) الجمعة: ٦.

ولا يخفى أن اليهودي أو النصراني يرى هذه الآيات شديدة الوقع على نفسه، فهو يُتهم بأنه كافر! وملعون! وباغ! وفاسق! وظالم! وقاسي القلب! ومن شر البرية! ويتبع علماء كالحمير! ويتوعد قرآن المسلمين بأن الله سيقاتله ثم يخلّده في النار!

فكلّ هذه «الالتهامات» ألا تشكل حاجزا نفسيا بينه وبين الإسلام والمسلمين؟ ألا تزيد نفوره؟ ألا تزيد طغياناً وكفراً؟ بالطبع نعم،^(١) غير أنها من مقتضيات تعريفه بالحق ونصحه بسلوك سبيل الرشاد وترك سبيل الكفر والضلال والفساد، وإلا فكيف يمكن إبلاغه بأن عقيدته باطلة وأن عليه أن يعتنق الدين الحنيف؟! كيف يمكن ذلك دون أن نصارحه بأنه كافر وضال ويتبع شخصيات قامت بتحريف دين الله وإفساد البلاد والعباد؟! كيف يمكن ذلك دون أن نحذّره من مغبة مآله في النار إن هو أصرّ على التثبت بدينه الباطل؟!

نعم هي صدمة قد تكون نفورا أو حاجزا نفسيا عنده، إلا أنها ضرورية لتسمية الأشياء بمسمياتها، ووضع النقاط على حروفها، فالأولى والأهم دائما هو الصدع بالحق وبيان، ودعوة البشر إلى دين الله الذي ارتضاه لهم، والمنصف سرعان ما تزول الصدمة عنه ويرتفع ذلك الحاجز من شعوره تجاه الإسلام والمسلمين، عندما يعرف أنهم على الحق وأنه على الباطل، وأن الحجة معهم وهي عليه، وأنهم كشفوا له الحقيقة وبصّروه بما ينجي في الدنيا والآخرة، وكان هذا خيرا له من مجاملتهم إياه وإخفائهم هذه الحقائق عنه ليموت على اعتقاده بالأساطير والخرافات ويمجد نفسه تاليا في قعر جهنم العذاب!

(١) ولا سبيل لغير قول: «نعم»! فإن القرآن الحكيم بنفسه قد نطق بأنهم بسببه سيزدادون طغياناً وكفراً! كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِذَا يَدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. (المائدة: ٦٩)

• أنزل الله تعالى تلك الآيات الصاعقة في شأن أبي لهب لعنة الله عليه، ذلك الرجل الخبيث الذي استغل كونه عمًا لرسول الله (صلى الله عليه وآله) في التحرك والتآمر ضده لإحباط دعوته بل والتخلص منه. فقال سبحانه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾^(١).

وما زال المسلمون يتلون هذه الآيات حتى في صلواتهم المفروضة، فيتذكرون جرائم أبي لهب وأذاياه لخاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله) حتى استحق نزول هذه الآيات الشديدة في شأنه وفي شأن امرأته النذلة.

ولكن! لنجعل أنفسنا في موضع أبناء أبي لهب وأحفاده وذريته، ماذا سيكون شعورنا ونحن نرى فضيحة أبينا وأمنا قد بُتَّت في نصِّ تعبدي يتلوه الناس إلى الأبد؟! ماذا سيتولد في نفوسنا ونحن نسمع تعيير الناس لنا بأننا من أبناء رجل كافر فاجر هالك معذب بالنار هو وامراته؟!

لا شك أننا لو كنّا في هذا الموضع وكنا منتسبين إلى أبي لهب لشعرنا بضيق لا يُطاق، ولأحاطت بنا الكآبة، إذ إن هذه السورة تمثل إهانة شديدة وصريحة لوالدينا، والمرء لا يتحمل عادة أن يُهان في آبائه وإن كانوا مستحقين.

فالسؤال هنا: هل نتوقع أن أحدا من أبناء أبي لهب يمكن أن يتقبل الإسلام مع نزول هذه السورة الصاعقة وبقائها غير منسوخة؟ فإن هذه السورة من أعظم الحواجز النفسية التي تمنعه من الدخول في دين يتعبد أهله بدم أبيه وأمه! فلماذا إذن أنزلها الله تعالى وأثبتها في

كتابه؟! ألم يكن الأولى أن لا تنزل مثل هذه الآيات لئلا يُخلق حاجز نفسي بيننا وبين أبناء أبي هلب وذريته فيمكن أن يرغبوا في ما بعد بالإسلام؟!!

والجواب على هذا السؤال يتلخّص في أن الله الحكيم حكى الواقع في كتابه ليكون درسا للأجيال، فأبو هلب كافر ملعون خبيث، وكذلك امرأته حمالة الخطب، وعلى أبنائهما أن يتقبّلوا هذه الحقيقة وإن كانت مؤلمة، لأنها حقيقة! وليس من الصواب أن تُراعى مشاعرهم على حساب الدين والحق، وعلى حساب تبصير الأجيال بما تحمّله رسول الله (صلى الله عليه وآله) في بدء دعوته من الأذى والمحن حتى من بعض أقاربه.

فإذا كان أبناء أبي هلب مستعدين لدخول الإسلام فعليهم أن يذعنوا لهذه الحقيقة، وهي أن والديهم كانا محاربين لله ورسوله، وعليهم أن يتبرأوا منها وإن كانوا من نسلها، فإذا فعلوا وآمنوا واتقوا احترامهم الإسلام واحترامهم المسلمون، وفرّقوا بينهم وبين والديهم، فإنه ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. (١)

وهكذا كان بالفعل؛ فإن كثيرا من الناس اليوم لا يعلمون بأن بعض أبناء أبي هلب وأحفاده قد أسلموا وآمنوا رغم ما نزل في أبيهم وأمهم من قوارع الآيات! فكان منهم عتبة بن أبي هلب، ومعتب بن أبي هلب، وقد أسلما يوم الفتح ثم شاركا في معركة حنين حتى إذا انهزم الجمع وولّوا الدبر وخذلوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان هذان ممن ثبت في أرض المعركة مدافعين منافحين! (٢) ومن أحفاده المسلمين العباس بن هلب ابن

(١) الإسراء: ١٦.

(٢) لاحظ ترجمتهما في الإصابة لابن حجر برقم ٥٤٢٩ ورقم ٨١٣٨

أبي هب^(١) وابنه الفضل صاحب الأبيات المشهورة في الانتصار لأمر المؤمنين (عليه السلام) حين أزيح عن مقامه الشرعي في الخلافة بعد مؤامرة سقيفة بني ساعدة، والتي يقول فيها:

ما كُنتُ أحسبُ أن الأمرَ منصرفٌ	عن هاشمٍ ثم منها عن أبي حسنٍ
البرُّ أوَّلُ من صلَّى لقبلتهِ	وأعلمُ الناسِ بالقرآنِ والسُّنَنِ
وآخرُ الناسِ عهداً بالنبِيِّ ومَنْ	جبريلُ عونٌ له في الغُسلِ والكفنِ
مَنْ فيه ما فيه لا تَمُتُون بهِ	وليسَ في القومِ ما فيه مِنَ الحَسَنِ ^(٢)

فها أنت ترى كيف أن هؤلاء قد أسلموا وحسن إسلامهم وقد تجاوزوا الحواجز النفسية التي خلقتها تلك الآيات الواردة في شأن أبيهم وأمههم، وهكذا هو شأننا مع من يعتقدون بأن عائشة أمهم، فوإن كان منهمجنا وطرحنا مسببا لشيء من الصدمة أو النفور في بادئ الأمر أو خالقا لحاجز نفسي إلا أن كل ذلك يزول في ما بعد عند المنصفين ممن هدى الله، والأهم والأولى هو تبيان الحق وعرض الحقيقة، فإذا اعترضت علينا وجب أن تعترض على الله سبحانه إذ أنزل سورة أبي هب! فهل تفعل؟!

ثم إن عليك أن تعلم بأن الإسلام لا يعترف بتعاضم مكانة شخصية من الشخصيات المنحرفة، فمهما امتلكت تلك الشخصية من الأتباع والأنصار، ومهما تسربت بسربال القداسة؛ فإن ذلك لا يمنع المسلم من الجهر بكلمة الحق في وجهها وفي وجه أتباعها، فالمعيار

(١) لاحظ ترجمته في الإصابة برقم ٤٥٢٦ وقد سَمَّاهُ (العباس بن عتبة بن أبي هب) وهو غلط فإنه ابن هب المقتول بدعاء الرسول (صلى الله عليه وآله) في قصة الأسد، لا ابن عتبة الذي أسلم يوم الفتح.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ج ٤ ص ٤٠، وثمة قول بنسبة الأبيات إلى أبي سفيان بن حرب، وقول ثالث بنسبتها إلى العباس بن عبد المطلب. والمظنون أنها من الأول أعني الفضل بن العباس بن هب بن أبي هب إلا أنها سُمعت من الآخرين ترديدا آنذاك، فإن الأشعار كانت تسري بين الناس سريان النار في الهشيم.

ليس هو العظمة الدنيوية للشخصية بحيث أنه إذا غدت بالباطل رمزا مقدسا عند قوم ما امتنع عن ثلبها وفضحها! بل المعيار هو العظمة الأخروية للشخصية، فإذا كانت مؤمنة مطيعة لله تعالى وجب احترامها حتى وإن لم يكن لها في الدنيا أنصار أو أتباع كحال كثير من أنبياء الله تعالى الذين ناصبهم أقوامهم العدااء وارتحلوا إلى جوار ربهم شهداء مظلومين غرباء!

■ منهج أنبياء الله ﷺ في التفرقة يصادق على منهجنا!

• إن الأنبياء (عليهم السلام) جميعا عندما يعلنون دعوتهم فإنهم يتسببون واقعا في زلزال يفرق المجتمع وينسف وحدته وتماسكه نسفا!^(١) وانظر نظرة عابرة إلى التاريخ وسترى أن أي مجتمع قبل ظهور نبي فيه يكون متحدا متماسكا متآلفا متحابا، فإذا ظهر فيه نبي؛ وقع فيه الانقسام والتفرق والتنازع والتباغض إلى درجة أن الابن يرفع السيف في وجه أبيه وكذا الأخ في وجه أخيه!^(٢) ويصاحب هذا في الغالب اشتباكات داخلية وحروب أهلية تمتد آثارها في بعض الأحيان إلى قرون!

فلم يحصل كل هذا؟ والجواب معلوم؛ فإن النبي بإظهاره دعوته إنما يطرح مشروعا إبطاليا لما هو سائد اجتماعيا عند قومه من معتقدات وأفكار وأساليب حياة، فيسبح هو ومن

(١) تأمل قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ البقرة: ٢١٤، نعم... كان الناس أمة واحدة فلما بعث الله النبيين اختلفوا وتنازعوا!

(٢) تأمل قول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقَمِ وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ وَجِدَادًا فِي جِهَادِ الْعُدُوِّ» نهج البلاغة: ٥٦

يؤمن به عكس التّيار، وينظر إليهم قومهم نظرة المتطاولين على المقدّسات، الساعين لهدم أسس المجتمع، الزارعين بذور الفتنة والشقاق، المفرّقين للجعاة والشارخين «للوّحدة الوطنية»!

وهذا كلّ صحيح! فإنّ النبي ومن معه «يتطاولون» على تلك المقدّسات الزائفة من أوّثان وأصنام ويسفّھونها، ويسعون لهدم الأسس الباطلة التي قام عليها المجتمع من الكفر والشرك والضلال والفساد، ويخلقون «فتنة»^(١) بين الناس ليتميّز المؤمن عن الكافر فيها، ويشقّون المجتمع إلى نصفين أحدهما أخذ بالحق والآخر بقي على الباطل، ويشرخون ما يسمى بالوحدة الوطنية التي تكون على حساب إحقاق الحق، ويحلّون محلّها «الوحدة الإيمانية».

أجل؛ إن النبي عندما يظهر في مجتمعه ما فإنه يفرّقه ويقسّمه، محاولاً إعادة توحيده على أسس سليمة، فإن المجتمع الذي يكون متوحداً على أساس الكفر والفساد لا ينفعه توحده في شيء، لأنّه يقوده إلى الهاوية وإن كانت صورة «الوحدة» في الظاهر جميلة برّاقة.

ولكي تكون على بينة أكثر في هذا الصدد؛ تأمل في نموذج النبي العظيم إبراهيم (عليه وعلى نبينا وآلهما السلام) فإنه حينما انطلق في دعوته عمد إلى أكثر الأساليب «استفزازاً» للمجتمع! عندما قام بتكسير أصنامهم التي هي عندهم أقدس مقدّساتهم إذ هي آلهتهم التي يعبدونها! وأنت عالم برّدة فعلهم العنيفة على هذا العمل. فهل أن إبراهيم (صلوات الله عليه) كانت تنقصه الخبرة بالأساليب الدعوية الكثيرة الأخرى أو أنه كان يجهلها - والعياذ بالله - حتى عمد إلى هذا الأسلوب الاستفزازي السافر؟! قطعاً لا؛ وإنما كان في لجوئه لهذا

(١) بمعنى الاختبار، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَصْلَهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ طه: ٨٦، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ العنكبوت: ٤، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ الدخان: ١٨.

الأسلوب حكيمًا، ففي أحيانٍ لا يمكن إيقاظ المجتمع من وهم المقدسات الزائفة والخرافات والأباطيل إلا بكسرها وسحقها وتدميرها بشكل مباشر على نحو يصعق المجتمع ويجعله يصحو من غيبوته! تماما كالمغشي عليه الذي نضطر أحيانا إلى أن نصفعه صفقة قوية على وجهه حتى يفيق!

لقد حاول معهم إبراهيم (عليه السلام) بأسلوب التمثيل التدريجي، عندما أشار إلى الكوكب والقمر والشمس قائلاً لكلٍّ منها: «هذا ري!» عسى أن ينبّه أذهان الناس إلى أنه ما من إله إلا الله وحده، وفي ختام هذا المشهد أعلنها بعد ذلك: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

واستخدم معهم إبراهيم (عليه السلام) أسلوب الحوار، فجادلهم مرارا على أمل أن يهتدوا، إلا أن كل هذه المحاولات لم تنفع ولم تحقق النتيجة المرجوة، فكان لا بد حينها من «صعقة الإنقاذ» وإن كانت استفزازية أو مؤلمة. أراد خليل الرحمن (صلوات الله عليه) أن يُشهدهم واقعا كيف أن الآلهة التي يعكفون على عبادتها لم تستطع حتى حماية نفسها من الكسر! فكيف تكون آلهة تُعبد؟!

لهذا خطى إبراهيم (عليه السلام) هذه الخطوة الصعبة وتحمل نتائجها الخطيرة التي هانت في سبيل هدف تكوين النواة الإيمانية في ذلك المجتمع الوثني الكافر، فبعد هذه الخطوة الشجاعة راجع بعض القوم أنفسهم وأدركوا ما هم عليه من ضلال فآمنوا بدعوة إبراهيم عليه السلام، وقد أمرنا الله تعالى بأن نفتدي بهؤلاء ونجعلهم أسوة حسنة لنا في أسلوب تعاملهم مع قومهم، فبأي أسلوب تعاملوا؟

إنه أسلوب يحمل كثيرا من التحدي والجرأة والإصرار على نفس الرموز المقدسة للآخرين وإعلان البراءة منهم والتعبير بصراحة عن عداوتهم وبغضهم لهم إلى الأبد ما داموا لا يتخلّون عن عقيدتهم الفاسدة! وذلك هو ما حكاه الله تعالى لنا إذ يقول عزّ من قائل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾^(١)

لقد اتخذوا أشدّ المواقف واستخدموا أقسى العبارات، فقد قالوا لقومهم: ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ﴾! ولم يكتفوا بذلك بل أردفوه بما هو أشدّ حين قالوا: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾! ولم يكتفوا بذلك أيضا فزادوا قائلين: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾! ومع هذا فالله تعالى يأمرنا بالاعتداء بهم في صنيعهم هذا إذ يقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾!

نعم لقد خرق إبراهيم والذين معه هذه الوحدة الأهلية المبنية على الباطل، وانشقوا عن مجتمعهم، وتحذقوا ضده، وتمردوا على رموزه المقدسة، ولم يقبلوا بأي نوع من أنواع التوافق أو الانسجام معه للحفاظ على تماسكه أو الإبقاء على وحدته. وهذه صورة جلية لصراع طائفي أهلي حقيقي أحدثه إبراهيم والثلة المؤمنة به! فلو أنهم سكتوا وتغاضوا لما حصل كل هذا ولما تمزّق المجتمع إلى طائفتين متحاربتين تحفر الأولى حفر النيران لتحرق الثانية فيها! فهل لنا أن نعترض على ما فعله أبو الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين مدّعين أنه كان الأولى بهم أن يحافظوا على وحدة المجتمع وتماسكه ويتغاضوا عن «إهانة» رموزهم المقدسة؟! معاذ الله، فإن هذا الاعتراض يخرجنا من الإسلام!

بل الواجب علينا أن نستفيد من هذا النموذج ونفهم أن أي سعي للحفاظ على وحدة المجتمع إذا كان مبنيًا على أساس التنازل عن إحقاق الحق والتخلي عن إبطال الباطل هو سعي مرفوض في الإسلام، لأن نتيجته بقاء الكفر والضلال والفساد والانحراف، فلا أحد يجهر بالدعوة إلى سبيل الله تعالى ونبذ سبيل الشيطان وحزبه بذريعة الحفاظ على وحدة المجتمع وتماسكه وتألفه وما إلى ذلك من الشعارات الرثانة التي يُضحك بها على ذقون السُّدَج من الناس!

وفي المقابل؛ فإن كل سعي لهداية الناس إلى الحق وتعريفهم بالباطل وبالرموز المقدسة التي خُدعوا بها هو سعي مبارك يَحْتَّ عليه الإسلام حتى ولو استلزم - اضطرابا - تمزيق المجتمع وتشطيره وتحمل تبعات ذلك على خطورتها والتضحيات الجمة التي ستطلبها! وقد بَشَّرنا الله تعالى إذ قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١﴾.

■ نعم لشق الصف لإزالة طريق الحق!

وصحيح أن السعي لهداية الناس يلازم عادةً شق وحدة الصف؛ بيد أنه يقع عرضا وفي مرحلة البداية فقط، والهدف هو إعادة توحيد المجتمع وجمعه على أساس إيماني سليم خالٍ من الباطل والانحراف، وهذا كان هدف إبراهيم وسائر الأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام؛ أن تتوحد المجتمعات على أساس الحق لا الباطل، فإن التوحد على أساس الباطل لا نفع فيه بل فيه الضرر في العاجلة والآجلة. لذا فالمأمول بعد تجاوز مرحلة البداية

وصدماتها أن يستنير المجتمع بنور الحق فيتوحد من جديد ارتكازا عليه، والتجارب التاريخية أثبتت صوابية هذا المسعى.

وعلى ما تقدّم؛ فنحن مأمورون شرعا بهداية المنحرفين عن دين الله تعالى، ومن هؤلاء طائفة البكرين الذين بسبب إفراطهم في هوى عائشة يكادون أن يتخذوها - عمليا - إلهاً يُعبد من دون الله! كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.^(١)

وتحوّل عائشة إلى رمز مقدس أو حتى إلى إله لا يجب أن يجعلنا نراجع عن بيان حقيقتها التي تنطق بها الأدلة من أنها امرأة كافرة ناصبة قاتلة فاسقة مجرمة عاهرة! بل إن ذلك يضاعف علينا الوجوب في العمل على تبصير أهل العامة بهذه الحقيقة ليهتدوا ويعرفوا أنهم باتباعهم لتعاليم هذه المرأة الخبيثة فإنهم يسرون في درب الشيطان لا درب الرحمن!

وعملنا «إبطالي نسفي» على الطريقة الإبراهيمية، ولا يهمنّا ما قد نُتَهَم به من إحداث الفتنة وشق وحدة الأمة، فإنها هي - على فرض وجودها - وحدة مبنية على باطل وانحراف، ولا خير في وحدة كهذه! وموقفنا هنا هو موقف إبراهيم والذين معه، فمن أراد الاعتراض فليعترض على أولئك أولا ثم يأتينا!

■ ألم ينهنا الله عن سب آلهتهم ونهانا الأئمة عليهم السلام عن سب رموزهم؟

الجهة الثالثة؛ إن محاولة الاستقواء بآية النهي عن سب آلهة المشركين^(١) لإحباط جهود تعرية أئمة ورموز الباطل والضلالة والمناوأة لأهل البيت عليهم السلام؛ هي محاولة فاشلة محكوم عليها بالسقوط.

أما أولاً؛ فلأن ما نُهي عنه في الآية إنما هو خصوص السب وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾ وهذا غير ما نحن بصدده من بيان مساوئ وجرائم تلك الشخصيات بمنهجية علمية بغية إثبات عدم جواز موالاتها أو الاقتداء بها. فإن قيل: إنكم أحياناً تلعنون صراحة؛ قلنا: اللعن غير السب، فإن الأول دعاء مشروع لله تعالى بطرد وإبعاد هذا الملعون من رحمته، أما الثاني فهو استخدام مفردة لغوية وصفية مغايرة لواقع الموصوف بقصد الإهانة والانتقاص. ولا يقال: فأنتم تستخدمون أوصافاً من قبيل (خونة، أنذال، سفلة، خبثاء.. إلخ)؛ إذ يقال: هي وإن كانت أوصافاً إلا أنها لا تغاير الموصوف وذكرها ليس لمجرد قصد إهانتها والانتقاص الشخصي منه وإنما لبيان حاله الواقعية وفق الأدلة والوقائع. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.^(٢)

وأما ثانياً؛ فلأن النهي الوارد في الآية هو عما يتوجّه من سب إلى آلهة المشركين لا أنه يعم جميع الأفراد، وعلى فرض عمومية الحكم في الآية فإن ما نحن بصدده يكون خارجاً عنه

(١) ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. (الأنعام: ١٠٩).

(٢) الأعراف: ١٧٧

تخصّصاً لأنه ليس بسبب، وعلى فرض أنه كذلك فيكون خارجاً عنه تخصّيصاً لما مرّ عليك من قوله صلى الله عليه وآله: «وأكثرُوا من سبِّهم»^(١).

فإن قيل: بل إن الحكم يعمّه لقول الرضا عليه السلام: «يا ابن أبي محمود.. إن مخالفتنا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام، أحدها الغلو وثانيها التقصير وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفّروا شيعتنا ونسبواهم إلى القول بربوبيّتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسائنا وقد قال الله عز وجل: ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم»^(٢).

قلنا: الخبر في مقام الحث على التمييز بين الروايات المنسوبة إليهم (عليهم السلام) عند المخالفين لئلا يؤخذ بتلك المكذوبة عليهم من قبلهم، فإنه (عليه السلام) قال: «إن مخالفتنا وضعوا»، وقد كان جواباً منه (عليه السلام) على سؤال إبراهيم ابن أبي محمود وهو: «يا بن رسول الله.. إن عندنا أخباراً في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام وفضلكم أهل البيت وهي من رواية مخالفيكم ولا نعرف مثلها عندكم أفنديين بها؟»^(٣) ومنه تعرف أن التحذير إنما هو مما رُوي منسوباً إليهم عن طريق المخالفين فحسب مما يظهر منه أنهم قد اختلقوه لأجل تشويه سمعتهم (عليهم السلام) سواء كان من باب الغلو أو التقصير أو الثلب، أما ما رُوي منسوباً إليهم عن طريق ثقاتهم وأصحابهم وشيعتهم ورواة حديثهم فلا يشمل، وكذا لا يشمل ما هو غير منسوب إليهم وإن كان من طرق المخالفين كرواياتهم القاذحة في أئمتهم

(١) الكافي ج ٢ ص ٣٧٥

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج ٢ ص ٢٧٢

(٣) المصدر نفسه.

وخلفائهم والتي تكون حجة عليهم، وعلى هذا فالاستدلال بالخبر على تحريم مطلق الثلب غير تام بل هو أجنبي عما نحن بصده من نقل رواياتهم التي يشهدون بها على أنفسهم، أو نقل رواياتنا عن أئمتنا عليهم السلام.

ولا يُقال: إنما مطلوبنا ذيل الخبر إذ فيه اندراج ذكر مثالب أعدائهم بأسمائهم تحت حكم النهي عن السب في الآية. إذ يُقال: لا يتم مطلوبكم لتعدية الحكم بالنهي عن السب على ذكر المثالب مطلقاً إذ التعليق في الخبر يجاري التعليق في الآية فتكون الحرمة على تقدير ما لو كان ذكر تلك المثالب مستلزماً لأن يرتدّ على الأئمة (عليهم السلام) فيُثلبون والعياذ بالله، ولا يخفى ارتفاع الملازمة اليوم إذ لا يجسر أحد منهم على الإساءة إلى أئمتنا (صلوات الله عليهم) علناً كما كان أسلافهم يفعلون، ولا يُعتنى بالشاذ منهم، فلا محذور من هذه الجهة. وبذا تقف على أن الخبر منصرف إلى قضية خارجية بحسب ظروف ذلك الزمان، كما هو الحال في سبب نزول الآية، إذ كان قيام المسلمين في بدء الدعوة بسبب آلهة المشركين يستدعي تجاسر هؤلاء على الذات الإلهية، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، ثم لما ارتفع هذا المحذور نزلت آيات عدة في ذم هذه الآلهة ووقع ما كان أشدّ وأوقع على قلوب المشركين من سبّها وهو تحطيمها يوم الفتح.

هذا والحاصل من ملاحظة سبب نزول الآية الكريمة أن غايتها نهى المؤمنين عن الانفلات العصبي في ما يقابل الكافر بحيث يُشتم إلهه جزافاً دون أن يكون لذلك أدنى فائدة أو مصلحة بل يترتب عليه ارتداد الشتم على الرب تبارك وتعالى وتعميق التضاد بين المؤمنين والكافرين بما لا يُرجى معه هدايتهم، فهذا هو المنهي عنه، أما المناقشة والطرح العلمي وإن اقتضى إهانة إله الكافر في نظره فليس بمنهي عنه، بل هو مستحب

ومطلوب شرعا لإثبات بطلان عقائده السخيفة. وهذا الذي قلناه هنا نقوله هناك في ما يقابل المخالف لوحدة المناط.

فإن قيل: سلّمنا لكن قد صدر النهي الخاص عن سب أعداء الأئمة حيث يسمعون في رسالة الصادق (عليه السلام) لشييعته، وفيها: «.. وإياكم وسب أعداء الله حيث يسمعونكم فيسبوا الله عدوا بغير علم، وقد ينبغي لكم أن تعلموا حد سبهم لله كيف هو؟ إنه من سب أولياء الله فقد انتهك سب الله، ومن أظلم عند الله ممن استسبب الله ولأولياء الله، فمهلا مهلا، فاتبعوا أمر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(١).

قلنا: الجواب أولا على ما قرّرناه آنفا من أن النهي متعلق بما لو ارتد السب على أولياء الله تعالى، ومع عدمه - كما في زماننا - فلا نهي. وثانيا أن ما نحن بصدد من تعرية أئمة الباطل والجور بالدليل والبرهان ليس سبا ولا يتوجه إليه النهي، ويؤكد جريان ذلك في زمانهم (عليهم السلام) من قبل أصحابهم كهشام بن الحكم وغيره في مجالس المناظرة والكلام مع حصول تأييد الأئمة (عليهم السلام) لهم فيها. وثالثا أن النهي في الخبر لقضية خارجية وهو مقيد بظروف ذلك الزمان لا أنه مطلق يشمل كل حين، ونظيره صدور النهي آنذاك حتى عن ذكر فضائلهم بل ذكر أسمائهم المباركة! كما في رواية عنبة عن أبي عبد الله الصادق صلوات الله عليه: «إياكم وذكر علي وفاطمة عليهما السلام فإن الناس ليس شيء أبغض إليهم من ذكر علي وفاطمة عليهما السلام»^(٢).

فهل يُعقل أن يمتنع أحد الآن عن ذكر علي وفاطمة (عليهما السلام) باعتبار صدور النهي عن ذلك؟! بالطبع لا.. فإن النهي مؤقت ومتعلق بظروف الاضطهاد والتقية الشديدة

(١) الكافي ج ٨ ص ٧

(٢) الكافي ج ٨ ص ١٥٩

التي يكون فيها ذكرهما (صلوات الله عليهما) معرّضا الإنسان المؤمن لخطر القتل أو الضرر الشديد، أما في عصرنا حيث لا يتهدد الإنسان مثل هذا الخطر فلا إشكال في قيامه بواجب ذكرهما وإحياء أمرهما صلوات الله عليهما.

وكذلك فإنه لا يجب في عصرنا الامتناع عن ثلب أعداء علي وفاطمة (عليهما السلام) وذكر مساوئهم وجرائمهم ومخازيهم، ودفع الناس إلى البراءة منهم ولعنهم وسبهم، فإن النهي عن ذلك إنما كان مؤقتا ومتعلقا بظروف الاضطهاد والتقية الشديدة، وقد ولّت تلك الظروف مع حصول التقدم العالمي الذي نشهده باتجاه الحريات وحقوق الإنسان والمعلوماتية بحيث يمكن للإنسان المؤمن أن يصرح بجرائم أعداء الله - ولو عبر شبكة الإنترنت مثلا - دون أن يتهدده أدنى خطر.

فلنشعلها ثورة إذن! نجعل فيها الناس تثور على الباطل بكل صوره وأشكاله ومعانيه وشخصياته، فذلك مما ربّانا عليه أئمتنا (عليهم السلام) وهو من أعظم القربات إلى الله تعالى.

■ كيف ربّانا الأئمة عليهم السلام على فضح رموزهم؟

وحتى تعرف كيف كان أئمتنا (صلوات الله عليهم) يقومون بتربية شيعتهم على فضح أئمة الضلالة كأبي بكر وعمر وعثمان عليهم اللعنة؛ تأمل في هذه الرواية الشريفة التي تحكي ما صنعه إمامنا الحسن الزكي العسكري صلوات الله عليه وأرواحنا فداه:

«اجتمع قوم من الموالين والمحبين لآل رسول الله صلى الله عليه وآله بحضرة الحسن ابن علي عليهما السلام، فقالوا: يا بن رسول الله.. إن لنا جارا من النّصاب يؤذينا ويحتجّ علينا في تفضيل أبي بكر وعمر وعثمان على أمير المؤمنين عليه السلام، ويورد علينا حججا لا ندرى كيف الجواب عنها والخروج منها؟

فقال الحسن عليه السلام: أنا أبعث إليكم من يفحمه عنكم، ويصغر شأنه لديكم. فدعا
برجل من تلامذته وقال: مُر بهؤلاء إذا كانوا مجتمعين يتكلمون، فتسمع إليهم، فيستدعون
منك الكلام فتكلم، وأفحم صاحبهم، واكسر عزته، وفلّ حده، ولا تُبق له باقية!

فذهب الرجل وحضر الموضع وحضروا، وكلم الرجل فأفحمه وصيره لا يدري في
السماء هو أو في الأرض! قالوا: ووقع علينا من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى،
وعلى الرجل والمتعصبين له من الحزن والغمّ مثل ما لحقنا من السرور.

فلما رجعنا إلى الإمام قال لنا: إن الذي في السماوات من الفرح والطرب بكسر هذا العدو
لله كان أكثر مما كان بحضرتكم، والذي كان بحضرة إبليس وعتاة مردته من الشياطين من
الحزن والغمّ أشد مما كان بحضرتهم. ولقد صلب على هذا العبد الكاسر له ملائكة السماء
والحُجُب والكرسي، وقابلها الله بالإجابة، فأكرم إياه وعظم ثوابه. ولقد لعنت تلك الأملاك
عدو الله المكسور، وقابلها الله بالإجابة فشدد حسابه وأطال عذابه»^(١).

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام ص ٣٥٣ والاحتجاج للطبرسي ج ١ ص ١٢

التوطئة الخامسة

■ التصعيد والاستفزاز للمناعة من الخمول

يغيب عن كثير من المسلمين أنه لما بدأ خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله) دعوته بالتوحيد ودين الإسلام، لم يلقَ مجابهةً من قومه ولا محاربة جدية منهم في أوائل أمره، وإنما تطوّرت الأمور إلى تلك الصدمات العنيفة بعد خطوة تصعيدية قام بها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

تلك الخطوة تمثّلت بتحويل لهجة الخطاب الدعوي إلى اتجاه يتعدى على الرموز المقدسة للطرف الآخر! ففي بادئ الأمر؛ أعلن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه صاحب دين جديد اسمه الإسلام، مبيّناً بعض أساسياته وأركانه كالتوحيد والمعاد، مُظهرًا ما فيه من خير للبشر إن هم آمنوا به وطبقوه. إلا أن هذا الخطاب بما يقتصر عليه وبمستوى نبرته لم يكن كافياً لتحقيق الغاية، وهي محو الكفر وإحلال الإسلام، لأن قريشا تعاملت مع النبي (صلى الله عليه وآله) في البداية كتعاملها مع أي مدّعٍ آخر لنزول خيرٍ من السماء عليه، إذ لم تجد في دعوته ما يستفزّها أو يهدد أعرافها السائدة ومصالحها القائمة، ولذا فإنها قابلت هذه الدعوة المحمدية باللامبالاة ولسان حالها يقول: «لنا آلهتنا، ولمحمد إلهه!» وبسببها - أي اللامبالاة - لم تحقق الدعوة تقدماً ونموًا بالمستوى المطلوب.

وهنا غيّر المصطفى (صلى الله عليه وآله) لهجة الخطاب وقواعد التعاطي مع قومه، إذ أراد أن يستدرج قريشا إلى المواجهة لأن سياسة اللامبالاة التي اتبعتها كانت ستسبب خمول ذكر هذه الدعوة الجديدة وضمورها، والمواجهة هي التي تتيح الفرصة لاستيقاظ المجتمع، عندما يرى ويسمع كلا الطرفين المتواجهين، فيعرف أيهما على حق وأيهما على باطل، كما أن المواجهة بما تُحدثه من دويٍّ في أرجاء المجتمع تُبقي الدعوة حيّة وتمنع خمولها، بل هي التي ستؤدي إلى انتصارها لاحقا بما تملكه من عناصر القوة الذاتية.

وهكذا شرع رسول الله (صلى الله عليه وآله) بهذه الخطوة التصعيدية بكل شجاعة وجرأة، متحدّيا قومه في أقدس مقدساتهم، فعاب آلهتهم واستهزأ بها! وسفّه عقائدهم وطعن فيها! ولما أقدم على ذلك؛ لم يحتمل قومه الأمر فعاتبوه وطلبوا منه الكفّ عن إهانة رموزهم الدينية فلم يقبل! وساموه على ذلك فلم يقبل! وهددوه أيضا فلم يقبل! فأعلنوها بعد ذلك حربا شرسة عليه.

وكصورة تاريخية إليك ما يرويه الطبري عن المؤرخ الشهير محمد بن إسحاق قال: «فصدع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر الله وبادى قومه بالإسلام، فلما فعل ذلك لم يبعد منه قومه ولم يردّوا عليه بعض الرد في ما بلغني حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك ناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته».^(١)

ويروي أيضا: «فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ورأوا أن أبا طالب قد حذب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم؛ مشى رجال من قريش إلى أبي طالب.. فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا! وعاب ديننا! وسفّه أحلامنا! وضللّ آبائنا! فلما أن تكفّه عنّا وإما أن تُخَيّ بيننا وبينه..

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٤

ومضى رسول الله على ما هو عليه يُظهر دين الله ويدعو إليه، ثم سرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا! وأكثر قريش ذكر رسول الله بينها وتذاَمروا فيه وحضَّ بعضهم بعضا عليه، ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا: يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا! وتسفيه أعلامنا! وعيب آهتنا! حتى تكفَّه أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.. ثم إن أناسا من قريش اجتمعوا.. فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فنكلمه فيه فلي نصفنا منه فيأمره فلي كف عن شتم آهتنا وندعه وإله الذي يعبد!.. فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأ نصفنا من ابن أخيك، فمُرَّه فلي كف عن شتم آهتنا وندعه وإلهه! ^(١)

ولم تجد كل هذه الوفود التفاوضية الثلاث إلى أبي طالب (عليه السلام) سوى موقف حازم رافض من رسول الله صلى الله عليه وآله، الذي رفض رفضا قاطعا أن يكفَّ عن التعرُّض لآهتهم قائلا مقولته الشهيرة لعمِّه أبي طالب: «يا عمِّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» ^(٢) فما كان من زعماء قريش بعد هذا الجواب إلا أن «غضبوا وقالوا: والله لنشتمنَّك وإلهك الذي يأمرك بهذا» ^(٣)

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٥

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٤٧٤

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٦

■ مرحبا بمخاطر التصعيد ونتائجه

جاء هذا الموقف النبوي الصلب رغم ما سببه من خطر على حياة النبي (صلى الله عليه وآله) نفسه، إذ من الطبيعي أن يكون إصراره (صلى الله عليه وآله) على شتم مقدّسات القوم وتعمّده لإيذائهم سبباً لاستفزازهم وسعيهم لقتله. يحدثنا أمير المؤمنين (عليه السلام) عمّا جرى بقوله: «ولقد كان النبي صلى الله عليه وآله يؤذي قريشاً بالدعاء، فقام يوماً فسفّه أحلامهم! وعاب دينهم! وشمّ أصنامهم! وضللّ آباءهم! فاغتمّوا من ذلك غمّاً شديداً، فقال أبو جهل: والله للموت خيرٌ لنا من الحياة، فليس فيكم معاشر قريش أحدٌ يقتل محمداً فيقتل به؟ قالوا: لا. قال: فأنا أقتله؛ فإن شاءت بنو عبد المطلب قتلوني به، وإلا تركوني، قال: إنك إن فعلت ذلك اصطنعت إلى أهل الوادي معروفاً لا تزال تُذكر به»^(١).

ومن الطبيعي أن يؤدي هذا العمل النبوي الجريء إلى تباعد وتضاغن واحتقانات داخلية توقّدت بين أهالي مكة حرباً أهلية طاحنة! حتى سالت الدماء في بدر وأحد والأحزاب وغيرهن!

وفي مقاييس كفار قريش؛ فإن الذي قام به رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان سبباً وشتماً وتعدياً على الرموز المقدسة، وانتهاكاً للملة المتوارثة، وهدماً للنظم الاجتماعية القائمة، وتمزيقاً لوحدة المجتمع، وإثارة للفتنة. وفي منطق كفار قريش أيضاً؛ فإن العرض الذي قدّمه للنبي (صلى الله عليه وآله) كان منصفاً وعادلاً! فكل ما عاتبوه فيه وطلبوه منه هو أن يكفّ عن شتم آلهتهم مقابل أن يدعوه وإلهه! فهو حرٌّ في الدعوة إلى إلهه ودينه كما يحلو له، إلا أنه لا يحق له أن يطعن في آلهة الآخرين أو يسفّه عقائدهم أو يهين رموزهم المقدسة!

(١) الاحتجاج للطبرسي ج ١ ص ٣٢٤

■ لا بناء للحق إلا بهدم الباطل

إلا أنه في المقاييس المحمدية؛ فإن ما قام به النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن مجرد سب وشتم، بل كان نقدا للموروثات الباطلة وإسقاطا للقداسات الزائفة اعتمادا على الحجة والبرهان. وفي المنطق المحمدي أيضا؛ فإن الامتناع عن الطعن في تلك الآلهة الخرافية لا يؤدي سوى إلى تثبيت وجودها المقدس في الواقع والشعور العام، وهذا يتنافى مع تثبيت عقيدة التوحيد لأنها لا يمكن أن تقوم إلا على هدم وإبطال عقيدة الشرك، ولذا فإن أول شعار بدأ به رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان شعار «لا إله إلا الله»، وهو مكوّن من جزئين؛ الأول (لا إله) وهو هادمٌ لكل إلهٍ ومعلنٌ للبراءة منه، والثاني (إلا الله) وهو مؤسسٌ لوحدانية الله تعالى والولاية له.

وعلى هذا لم يكن للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقبل بالعرض القرشي فيدعو لإلهه فقط ويترك آلهة المشركين وقداساتهم الزائفة على حالها! لأن الدعوة لإلهه إنما تنبني على إسقاط بل نسف تلك الآلهة والقداسات الوهمية.

بعدما عرفت هذا؛ فاعرف الآن أن المنطق الذي نلتزم به في منهجيتنا هو المنطق النبوي المحمدي، بينما منطق خصومنا هو منطق كفار قريش! ذلك لأن خصومنا قالوا لنا منذ الأيام الأولى لتحركاتنا الدعوية ومازالوا يقولون: لكم أن تدعوا إلى أئمتكم وأن تنشروا دينكم، لكن ليكن ذلك بتمجيد أئمتكم وبيان تعاليمكم الشرعية وما إلى ذلك، أما أن تعتدوا على الرموز المقدسة لمخالفكم فذلك ليس لكم ولا هو من حقكم!

وبعبارة أخرى؛ اذكروا محمدا وعليا وفاطمة والحسن والحسين وسائر الأئمة عليهم السلام، وذكّروا الناس بسيرهم وتواريخهم وأقوالهم ووصاياهم وفضائلهم ومناقبهم

وبطولاتهم وتضحياتهم، ولكن لا شأن لكم بأبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وسائر «الصحابة»، فلا تعيبروهم ولا تجرّموهم ولا تفضحوهم ولا تذكروا لهم مثلبة ولا منقصة!

وكان ردنا على هذه المفايضة ولا يزال هو الرفض القاطع، إذ لا يمكن لنا أن ندعو إلى أئمتنا أئمة الحق إلا بإسقاط أئمتهم أئمة الباطل، ولا يمكن تأسيس الولاية لأهل البيت (عليهم السلام) إلا على قاعدة البراءة من قتلهم وأعدائهم عليهم اللعنة والعذاب. وذلك ما نطق به الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) حين قال لأمر المؤمنين عليه السلام: «يا علي؛ إن ولايتك لا تُقبل إلا بالبراءة من أعدائك وأعداء الأئمة من ولدك».^(١)

وقد روى إمامنا الباقر (عليه السلام) عن جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليهما السلام) قوله: «لا يجتمع حبنا وحب عدونا في جوف إنسان، إن الله لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه فيحب هذا ويبغض هذا! فأما محبنا فيخلص الحب لنا كما يخلص الذهب بالنار لا كدر فيه، فمن أراد أن يعلم حبنا فليمتحن قلبه، فإن شاركه في حبنا حب عدونا فليس منا ولسنا منه! والله عدوهم وجبرئيل وميكائيل، والله عدو للكافرين».^(٢)

وفي موقف لافت؛ جاء أحدهم إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال له: «إني أتولاك وأتولى أبا بكر وعمر»! فأجابه عليه السلام: «أنت اليوم أعور! فانظر تعمى أو تبصر»!^(٣)

إذن؛ فليس هناك ازدواجية في دين الإسلام تسمح بأن يؤمن الإنسان بالله مع احتفاظه بالإيمان بهيكل واللات والعزى مثلاً! فإما أن تكفر بهيكل واللات والعزى لتؤمن بالله وإما فلا. وكذا ليس في الإسلام ازدواجية تسمح بأن يؤمن الإنسان بمحمد مع احتفاظه بموالاة مسيلمة

(١) كنز الفوائد للكرجكي ص ١٨٥

(٢) تفسير القمي ج ٢ ص ١٧١

(٣) الصراط المستقيم للبياضى العاملي ج ٣ ص ٧٤

مثلاً! فإما أن تبرأ من مسيلمة (عليه اللعنة) لتتولى محمداً (صلى الله عليه وآله) وإلا فلا. وكذا ليس في الإسلام ازدواجية تسمح بأن يأتى الإنسان بعلي مع احتفاظه بالائتماء بأبي بكر وعمر وعثمان مثلاً! فإما أن تبرأ من أبي بكر وعمر وعثمان (عليهم اللعنة) لتأتى بعلي والأئمة من ولده (عليهم السلام) وإلا فلا. وكذا ليس في الإسلام ازدواجية تسمح بأن يحب الإنسان فاطمة مع احتفاظه بحب عائشة مثلاً! فإما أن تبغض عائشة (عليها اللعنة) لتحب فاطمة الزهراء (عليها السلام) وإما فلا. وهكذا فالنقيضان لا يجتمعان.

وهذا هو المنهج الذي تبينناه منذ البداية وأصررنا عليه كلما قولنا بالترغيب أو التهيب، لأنه ببساطة منهج رسول الله صلى الله عليه وآله. وقد تعمّدنا كما تعمّد هو أن نصعّد من لهجة الخطاب الدعوي باتجاه تعرية رموز الباطل وأعلام الضلالة، مصاحبين ذلك كلّّه بالحجة والدليل والبرهان. ولم تكن نقبل بالتنازل إلى أن تقتصر جهودنا على بيان فضائل أهل البيت (عليهم السلام) فقط دون بيان مساوئ أعدائهم ومناوئهم، لإدراكنا أن ذلك يُسهّم في تثبيت قداسة هؤلاء عند المخدوعين من العامة، كما أنه يعرقل التمدد الشيعي السريع ويجعله يسير ببطء، فإن العامة تريد جواباً صريحاً لتساؤلاتها عما يعتقد الشيعية في خلفائهم وصحابتهم، وقد سئمت المجاملات.

وما يؤسف له أن كثيراً من الناطقين باسم التشيع اليوم قد وقعوا في فخ تلك المقايضة مع المخالفين، أعني اقتصار التبليغ على تعظيم الأئمة والسكوت عن أعدائهم، وأصبح هناك من يناصرها داخل إطار التشيع إلى حد التآصيل لها شرعاً حتى غدت اليوم هي السليقة السائدة عند جمهور الخطباء والمبلغين والعاملين! فترى السنة هؤلاء تلهج ليل نهار في ذكر فضائل ومناقب أهل البيت (عليهم السلام) إلا أنها في مسألة ذكر مثالب ومخازي أعدائهم تنعقد فلا

ينبس أصحابها بنت شفة! مع أن الإسلام والتشيع ولاءٌ وبراءٌ في الآن نفسه ولا يمكن الاقتصار والأخذ بأحدهما دون الآخر.

وقد تمخّض عن ذلك مع شديد الأسف نشوء اختلافات عقدية في أذهان بعض شباب الشيعة، فترى بعضاً منهم لا يعرفون وجهاً لمعاداة أمثال أبي بكر وعمر وعائشة لأن أحداً على المنابر لا ينطق ولا يبيّن حقيقة الأمور بصراحة! وإن كان هناك أحد فلا يفعل ذلك في العلن ليصل إلى الجماهير كلّها وإنما يفعل في الخفاء ليصل إلى عدد محدود من الناس وهو بذلك يظن أنه يبرئ ذمته أمام الله تعالى!

وما هو أسوأ من ذلك هو تمادي بعض المنحرفين من المحسوبين على الشيعة في محاولات التوفيق والتوأمة بين العقيدة الإسلامية والعقيدة البكرية في عملية مزجية خبيثة حتى بدأنا نشهد بوادر عودة «الطائفة البترية» من جديد! ^(١) وهؤلاء بما يملكونه

(١) «البترية» طائفة انشقت عن التشيع في عهد الإمام الباقر (عليه السلام) عندما خلطت بين ولاية علي (عليه السلام) وولاية أبي بكر وعمر (عليهما اللعنة) بدعوى أن الإمامة وإن كانت نصاً على أمير المؤمنين (عليه السلام) إلا أن انتزاع أبي بكر وعمر إياها منه كان عن خطأ اجتهادي لا يكفران ولا يفسقان بسببه! وقد رد الأئمة (عليهم السلام) على هؤلاء وذمّوهم وحكموا بضلالتهم إلى أن انقرضوا وانمحى وجود هذه الطائفة المنحرفة. واليوم فإن المنحرفين من المحسوبين على الشيعة يكررون نفس آراء هذه الطائفة ويطبقونها عملياً وسلوكياً، لهذا فهم «البتريون الجدد» الذين يجب عزلهم وإقصاؤهم عن الأمة الشيعية بخطوة شجاعة، تماماً كما عزل الشيعة الأوائل أسلاف هؤلاء حتى انقرضوا، لأن بقاءهم داخل جسد هذه الأمة يبدو كأنه إقرار بكونهم من الشيعة وهذا يجعلهم كالغدة السرطانية التي تنخر في هذا الجسد من الداخل لإفساده.

ومع الأسف فإن بوادر نشوء «البترين الجدد» قد طفت على السطح هنا وهناك، وقد وردت الروايات عن أهل بيت العصمة (عليهم السلام) بأن البترية ستظهر من جديد وسيلاقي القائم (صلوات الله عليه وعجل الله فرجه) ستة عشر ألف مسلح منهم في الكوفة وهم يقولون له: «يا بن فاطمة! ارجع لا حاجة لنا فيك!» كما رواه الطبري الإمامي في (دلائل الإمامة ص ٤٥٥) عن أبي جعفر الباقر صلوات الله عليه.

من إمكانات يسعون سعيًا شيطانيًا حثيثًا لإفساد نقاوة التشيع من الداخل، فإن أسيادهم من المخالفين وحكوماتهم أدركوا أنه ليس بإمكانهم القضاء على التشيع من الخارج فاتخذوا لهم عملاء أغدقوا عليهم بالمال للقضاء عليه من الداخل وباسم الولاية لأهل البيت عليهم السلام!

والشرع يوجب علينا جميعًا التصدي لهؤلاء بكل قوة، ولا يكون ذلك إلا بإعادة إحياء التشيع الأصيل من جديد، وتثبيت مواقفه المبدئية، وتدعيم أركان بنيانه، وبث روح الولاء المطلق في نفوس أبنائه.

أما غيرنا من الغافلين فنسأل الله تعالى له أن ينتشله من فخ القبول بمنطق كفار قريش في هذا العصر! وأن يعيده إلى المنطق النبوي المحمدي في العمل الإسلامي.

التوطئة السادسة

■ لماذا لا نتركهم ودينهم؟

قد تقول: كل هذه الجهود المبذولة لتعرية عائشة أو أبي بكر وعمر لن تفضي إلى شيء! لأن القوم الذين يتبعونهم ويوالونهم مصرّون على ذلك لا يقبلون التنازل عنه حتى وإن جئت لهم بألف دليل وبرهان، فلماذا نتعب أنفسنا في هذا الميدان؟ لنتركهم على حالهم ولا نوجع رؤوسنا بأمر هدايتهم! أليس الله يقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(١)؟

والجواب: إن ادعاءك هذا غير صحيح لأن الواقع يشهد بأن هذه الجهود قد حققت ولا تزال النتيجة المؤمّلة، ودونك دليلاً كل هذه الأفواج من أهل العامة الذين اهتدوا وعرفوا الحق ووالوا الأئمة الطاهرين (عليهم السلام) وعادوا أعداءهم. وإنّا حين نظرنا في الموجب لتشيع هؤلاء وجدناه في المقام الأول سقوط قداسة أئمة الكفر والجور كأبي بكر وعمر وعائشة، ولهذا تجد هؤلاء المهتدين حين يُعلنون تشيعهم أو حين يدوّنون تجاربهم في كتبهم ومؤلفاتهم يفرّدون فصلاً رئيسياً حول موضوع هذه الشخصيات ذاكرين مطاعنهم فيهم بأسلوب يفوق غالباً أسلوب غيرهم من الشيعة جرأة وحديثاً! ذلك لأنهم يشعرون بمرارة أن يكون الإنسان أسيراً للجهل ومخدوعاً بشخصيات هي في منتهى الإجرام.

(١) الكافرون: ٧

ولو لم تُفَضَّ هذه الجهود إلا إلى هداية إنسان واحد فقط؛ فذلك يكفي ويعتبر نجاحاً، فهذا رسولنا الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لأمرنا الأعظم عليه السلام: «لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس». ^(١) فكيف وقد أفضت هذه الجهود إلى هداية عشرات الآلاف كل عام؟

ثم على فرض أن هذه الجهود لا تفضي إلى شيء إطلاقاً؛ فإن وظيفتنا الشرعية تحتم علينا بذلها مهما كان، وتلك الوظيفة الواجبة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي لا تسقط في حال عدم احتمال التأثير على الغير، وحتى القائل بسقوطها في هذه الصورة إنما يسقط الوجوب لا الندب.

■ كتاب الله يشهد بالنجاة للأميرين والناهين لا التاركين

وتعرف هذه المسألة من التدبر في كتاب الله تعالى، إذ يقول سبحانه في ما حكاها عن أصحاب السبت: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. ^(٢)

وموضوع هاتين الآيتين الكريميتين هو بيان ما جرى للفاسقين من بني إسرائيل، حيث حرّم الله عليهم صيد البحر في يوم السبت لكنهم كانوا يفعلونه بالمكر والحيلة، فانعزل عنهم المؤمنون من بني إسرائيل، إلا أن هؤلاء المؤمنين انقسموا إلى طائفتين؛ طائفة أصرت على وعظ الفاسقين بأداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخرى تخلّت عن ذلك ولامت أختها عليه باعتبار أن هؤلاء الفاسقين لا يُحتمل التأثير عليهم أو هدايتهم فهم

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ٤ ص ١٣

(٢) الأعراف: ١٦٥ - ١٦٦

معاندون وسيهلكهم الله ويعذبهم عذابا شديدا، فلا حاجة لأن يوعظوا أو أن يؤمروا بالمعروف ويُنهوا عن المنكر، فإن هذه الجهود لن تفضي إلى شيء!

إلا أن الطائفة العاملة بهذه الجهود أصرت على موقفها قائلة أن هذا الإصرار دافعه تحصيل الإعذار من قبل الله تبارك وتعالى بأنهم قد أدوا ما عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم يقصروا فيه حتى وإن لم يستجب القوم، وكذلك يدفعهم إليه رجاء أن يتقنوا وإن كان الرجاء بعيدا جدا. وهكذا حصل بالفعل، فالفاسقون الظالمون لم يستجيبوا، فأهلكهم الله وأخذهم بعذاب بئس بما كانوا يفسقون.

والمثير للدهشة أن الله ينص على أن الطائفة التي نجت هي وحدها التي كانت تعظ وتنهى عن السوء! حيث قال سبحانه: ﴿أُنَجِّيَنَّ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ وهذا يعني أن الطائفة الأخرى من المؤمنين التي امتنعت عن أداء هذه الوظيفة هلك أيضا وإن لم تعذب عذاب الذين ظلموا، فتوانيتها عن أداء وظيفتها الشرعية عرضها للعقوبة وإن كانت مؤمنة، لأن هذا التواني بحد ذاته عصيان.

وبهذا يتبين لك أن الذين يقومون بأداء هذه الوظيفة الشريفة وبذل هذه الجهود العظيمة هم الذين ينجيهم الله تعالى فقط، فيفوزون حتى وإن لم يهتد أحد بسببهم، فإنهم قد أدوا ما عليهم أمام رب العالمين سبحانه وتعالى، أما الآخرون فيخسرون وإن آمنوا لتقصيرهم وتوانيتهم.

وهكذا نرغب نحن، أن نؤدي ما علينا لئلا يهلكنا الله، فنأمر بالمعروف وهو ولاية أهل البيت عليهم السلام، وننهي عن المنكر وهو ولاية أبي بكر وعمر وعائشة وأضرابهم عليهم اللعنة. وهذا في حقيقة الأمر لبُّ هذه الوظيفة، وقد أوضحه إمامنا الصادق (صلوات الله عليه) لأبي حنيفة عليه اللعنة. فقد روى شيخنا المفيد (رضوان الله تعالى عليه) بسنده أنه لما

قدم الصادق (عليه السلام) العراق نزل الحيرة فدخل عليه أبو حنيفة وسأله عن مسائل وكان مما سأله أن قال له: «جُعِلَت فداك.. ما الأمر بالمعروف؟ فقال عليه السلام: المعروف يا أبا حنيفة؛ المعروف في أهل السماء؛ المعروف في أهل الأرض، وذلك أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليهما السلام. قال: جُعِلَت فداك.. فما المنكر؟ قال عليه السلام: اللذان ظلماه حقّه وابتزّاه أمره وحملا الناس على كتفه!»^(١)

أما الآية الكريمة: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» فلا تعني سقوط تكليف أمر الكافر أو المخالف بالمعروف ونهيها عن المنكر، ولا تعني أن نقعد في بيوتنا فلا نجاهد بإعلاء كلمة الإسلام والتشيع بالسعي لهداية الناس! وإنما تعني في جملة ما تعنيه عدم إكراه الكافر أو المخالف على الدين، فله أن يحتفظ بدينه ويتحمّل نتائج ذلك في الآخرة، كما أن عليه أن لا يكرهنا على دينه أيضاً. ولا يصحّ أن يأخذ الإنسان آية من القرآن ويفسّر بها بهواه ويهمل الباقي، فإن آيات الذكر الحكيم وإن كانت ضمنّت حق الإنسان بالاحتفاظ بدينه المخالف للإسلام وعدم إكراهه عليه؛ فإنها كذلك أوجبت على المسلمين العمل على هدايته وتبصيره بالحق.

وأنت أيها المعترض على أدائنا لهذه الوظيفة الجليلية غافل! فإنك لا تدري ما فيها من الثواب العظيم، فقد قال رسول الله الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في الأرض وخليفة رسوله»^(٢)

(١) البحار ج ١٠ ص ٢٠٨ ولاحظ كيف أن الصادق (صلوات الله عليه) صفح أبا حنيفة النعمان بهذا القول والطعن الصريح في إماميه أبي بكر وعمر! وليت الشيعة في هذه الأيام يتعلمون من إمامهم الصادق كيف يقولون كلمة الحق بشجاعة أدبية في وجوه المخالفين والنواصب.

(٢) مستدرک الوسائل ج ١٢ ص ١٧٩

فأي مقام عظيم تريد حرماننا منه! إنه مقام أن نكون خلفاء الله ورسوله في هذه الجنبه،
فإن أردت أن لا تكون أنت من هؤلاء، فشأنك!

التوطئة السابعة

■ داء عضال أصابنا باسم التقية!

ما إن تنهض في الأجواء الشيعية فئة ترمي إلى تحرير الإنسان الشيعي من قيود الجهل المقنَّع والخوف والخضوع والاستسلام للواقع؛ حتى يحاربها الجبناء والانهزاميون والمتكالبون على حطام الدنيا والمتملقون للمخالفين من أرباب المصالح واللاهئين وراء السلطة والزعامة والشهرة والمال!

وقد استخدم هؤلاء في حربهم القذرة ضد المؤمنين الشجعان - ومازالوا يستخدمون - شتى صنوف التسقيط المبرمج لإبعاد الجماهير الشيعية عن الالتفاف حولهم وتغيير المعادلات القائمة، فهذا التغيير وإن كان سيحقق المجد والعزة لأمة التشيع إلا أنه سيكون معه كل تلك الزعامات الفاسدة وسيؤدي بكل ما بنته من مصالح إلى الانهيار التام! ولذلك تراها وأذناها ﴿كَانَهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾!

هؤلاء هم طفيليات وطحالب المجتمعات الشيعية، هم الذين لا يقتاتون إلا على حالة الضعف والانكسار فيها، لذا فإنهم يستमितون للإبقاء على هذه الحالة ويحشدون لأجل ذلك كل طاقاتهم البشرية وإمكاناتهم المادية، فبات لهم الصوت العالي واليد المتنفذة وخلت لهم الساحة يستغفلون فيها السواد الأعظم من بسطاء الناس ويخدعونهم.

وكان من مكرهم ودهائهم أن أصابوا الإنسان الشيعي بداء عضال أضحى مزماً تنتقل عدواه من جيل لآخر، فيورثه الآباء للأبناء، والأبناء لأبنائهم، وهكذا حتى استفحل وطال أمده وانتشر نطاقه فشلَّ قدرة الناس على التفكير في الثورة على الواقع المزري، وعطلَّ إرادتهم في النهوض وبلوغ العلياء، وجعل مبلغ همّهم وغاية أملهم أن يعيشوا منزوين لا لهم ولا عليهم!

هذا الداء العضال الذي جمّد ونوّم الأمة الشيعية وجعلها تعيش الذل والهوان؛ وضع له نافثوه عنواناً منتزَعاً من الشرع المقدس، فأصبح الداء يحمل هذا العنوان مع أنه بعيد كل البعد عنه.

ذلك العنوان هو .. التقية!

يكون الشيعي جالساً في مجلس عام فيسمع فيه إهانة لمعتقداته؛ فيغضب ويتهياً للرد إلا أن صاحبه ينهره قائلاً: اسكت.. اصمت.. تقية!

يتعرض الشيعي لظلم ذي دوافع طائفية؛ فيتتهياً للأخذ بحقه إلا أن ذويه يوبّخونه قائلين: اصبر.. تحمل.. تقية!

يُذبح أب الشيعي أو طفله فينتفض للقصاص العادل؛ فيقف أقرانه أمامه قائلين: استرجع.. احتسب.. تقية!

تُتهك وتُهدم أقدس مقدسات الشيعي - كما في البقيع وسامراء - فتأخذ الغيرة الدينية ويتتهياً لصد الحرب المفروضة عليه؛ إلا أن «قياداته» تصمّ أذنيه بقولها: الجم الغضب.. اضبط النفس.. تقية!^(١)

(١) الشيعة هم وحدهم من بين كل أهل الملل الأخرى في العالم يفرطون بمقدساتهم ويقبلون ببقائها في يد =

يتوجه الشيعي إلى أداء مناسك الحج والعمرة فيقف في ساحة الحرم ليؤدي الصلاة وحده بالكيفية الصحيحة التي أمر الله تعالى؛ فيأتيه معمم حزبي أخرق ليصده قائلاً: صل معهم... التحق بهم... تقية!^(١)

يكون الشيعي في محفل عام يحضره بعض المخالفين فيحل وقت الصلاة فيؤذّن؛ فإذا أوشك على ذكر الشهادة بالولاية جاءه أحدهم ناهراً: احذف.. تجاوز.. تقية!^(٢)

يقرأ الشيعي زيارة عاشوراء ويُنقل ذلك على الهواء مباشرة في إحدى القنوات الفضائية؛ فلما يصل إلى موضع لعن الظالمين يفزع إليه المسؤولون قائلين: قف.. اعبّر.. تقية!^(٣)

= أعدائهم! فالحرم العسكري الشريف في سامراء المقدسة - مثلاً - كان تحت نظارة النواصب منذ زمن قديم، وحتى بعد سقوط نظام الطاغية البعثي صدام التكريتي لم يحرك الشيعة ولا مرجعياتهم ساكناً لاسترداده وأبقوه هكذا في يد أعدائهم إلى أن وقع ما وقع ثم هم اليوم يتباكون عليه! وكنا شخصياً قد تحركنا بعض الشيء ابان وجودنا في العراق مع عدد من الأصدقاء من طلبة العلم باتجاه الضغط على بعض المرجعيات ذات النفوذ في النجف الأشرف للمطالبة بإرجاع الحرم إلى الوقف الشيعي، وكان ذلك قبل وقوع الفاجعة بفترة طويلة إلا أننا لم نجد أذناً تصغي! وكان التبرير.. التقية أيضاً! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) يحصل هذا فعلياً كل سنة على فتاوى فقهاء البترية الجدد، فيصلي الشيعي المخدوع خلف إمام وهابي يكفّره! وعندما يسجد يضع جبهته على السجادة كما في الحرم النبوي الشريف!

(٢) حصل هذا بالفعل في ما يسمى بدار الإسلام التابع لحزب الدعوة في لندن، وقد أخبرنا بالأمر أحد من كان هناك من المؤمنين حين استحضروا مقرئاً مصرياً للقرآن، فمن أجله وحده ومراعاة «لمشاعره» أدّثوا وأقاموا تلك الليلة دون ذكر الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام! ويجري مثل هذا كراراً في بعض مساجد لبنان البترية.

(٣) وما هو أسوأ ما نقله لنا أحد المؤمنين من الإمارات وقد كان عاكفاً على متابعة قناة المنار التابعة لما يسمى بحزب الله في لبنان في أوائل انطلاقتها، فذكر أنهم في الأشهر الأولى كانوا يثبون دعاء كميل وكان من جملة ما يُعرض في اللقطات التصويرية أسماء الأئمة المعصومين (عليهم السلام) المنقوشة في قبة إحدى المساجد، إلا =

يتشيع أحد المخالفين حديثا فيغدو متحمسا للدفاع عن حق أهل البيت عليهم السلام؛ فلما يتجهز للصعود إلى المنصة لنقل قصته أمام الجمهور يأتيه المنظمون قائلين: تحاشى عمر.. تحاشى أبا بكر.. تقية!^(١)

وهكذا تتعدد صور المأساة وتختلف مستوياتها باختلاف ظروف المناطق التي يعيش فيها الشيعة في العالم، وحجم الضغط الذي يتعرضون له من قبل الحكومات، فما لا يكون متاحا هنا قد يكون متاحا هناك، بيد أن عدم نيل الشيعة حقوقهم لا يمكن إلقاء تبعته على الحكومات فقط، وإنما على الشيعة أنفسهم، فإنهم بإبدائهم الاستسلام أفسحوا المجال للآخرين للتسلط عليهم والجور عليهم حتى في بلدان يبلغون فيها أكثرية ساحقة! كالعراق والبحرين والكويت في ما سبق.

إن جوهر المعضلة ليس في الحكومات وجورها على الشيعة، وإنما في النفسية الشيعية المصابة بداء الخنوع المعنون بعنوان التقية زورا، وهذا هو ما يفسر عدم وثوب الشيعة بشجاعة لمقابلة تحدي المخالفين لهم على مختلف الأصعدة في بلدان يكاد ينعدم فيه الضغط الحكومي عليهم، كالبلدان الغربية مثلا، فمع كل ما توفره هذه البلدان من أجواء حرية التعبير والعمل الديني والاجتماعي؛ مع ذلك يبقى الشيعي فيها أسرا لنفسه حاجزا إياها عن

= أنهم حذفوها بعد ذلك وجعلوا عوضا عنها صورا لبحار وأنهار وطيور! هذا مع أن هذه الأساء المقدسة لا

تزال منقوشة في الحرم النبوي الشريف. فتعسا لأمة ترضي المخالف وتملّقه بحذف أساء أئمتها!

(١) حصل هذا بالفعل في إيران مع أحد المهتدين المصريين وهو الشيخ الشهيد حسن شحاته رحمه الله، وقد أخبرنا بالأمر بنفسه مبديا تعجبه من أن يُدعى إلى بلد شيعي تحكمه حكومة شيعية - كما هو المفترض - ويوصى بترك مثل هذا مع أنه لا ينتهي عنه في بلد بكري تحكمه حكومة بكريّة - وهو وطنه مصر - ومع أنه تعرض هناك بسببه للسجن سابقا، حتى أفضى الأمر إلى استشهاده.

الانطلاق بقوة في مشروع كسر شوكة المعادين للتشيع ودحض باطلهم وإعلاء راية الولاية لآل محمد عليهم السلام.

ذلك لأن أية خطوة ناهضة يقوم بها شجعان الشيعة تحارب فوراً من قبل الجبناء والانزاعيين وطابور البترين، ويساعدهم على ذلك قطاع عريض من الجماهير الشيعة المخدوعة التي تحسب من كلام الواحد منها أنه «فقيه» في التقية بينما هو لا يُحسن أداء صلاته المفروضة!

إنك لا تكاد تجد أحداً من الشيعة لا يعرف حديث «التقية من ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له» ولا يحفظه عن ظهر قلب رغم عدم علمه بمعناه! لقد أصبحت التقية بمثابة علاقة تُعلّق عليها كل التثبيطات والتنويمات، فكلها مبرّرة بالتقية.. ثم التقية.. ثم التقية!

■ ما هو المعنى الشرعي الصحيح للتقية؟

ولهذا فنحن بحاجة لأن نعالج جماهيرنا ونخلصها من هذا الداء العضال المزمن، ليتضح لها المعنى الشرعي الصحيح للتقية، ولتعرف أن هذا الذي تسميه التقية وهي مستمرة عليه ليس هو إلا الخنوع والانزاع! وأن هذا هو الذي أدى بنا إلى كل هذه الانكسارات التي نعيشها حتى تجرّأ علينا أبناء الأعداء من النواصب والوهابيين فانتهكوا مقدساتنا وسفكوا دماءنا واستولوا على أوطاننا! وأن هذا هو الذي يجعل التمدد الشيعي يسير بوتيرة بطيئة لا تنهض أمام التحديات العالمية، في حين أن الشيعة الأوائل كانوا يحققون انتصارات ونجاحات هائلة في اختراق المجتمعات البكرية وهداية أبنائها إلى الإسلام الحقيقي أي التشيع، وفي زمن قياسي.

والحاجة إلى التعرض لمسألة التقية ملحة، إذ إن كثيرين يشنون - عن جهل - حربهم على منهجنا الرافضي من هذا الباب بالذات، وهو أن هذا المنهج مخالف للأمر بالتقية، لذا نحن

مضطرون لأن نفصل الكلام في التقية بما يتناسب مع هذه الشبهة حتى لا تنطلي على أذهان العوام من الناس. ويقع الكلام في مقامات:

● **المقام الأول:** التقية بالأصل رخصة لا عزيمة، وهي تبيح للمكلف ارتكاب أمر محرّم مخالف للحق التكليفي في الشارع اتقاء للضرر المحتمل وقوعه عليه إن امتنع عن المخالفة. والآيتان المشتملتان على تشريعها لا تدلان على أكثر من كونها رخصة استثنائية.

ففي الأولى قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(١) ومفادها تغليظ حرمة اتخاذ الكافرين أولياء والتحذير منه إلا أن يكون الاتخاذ اتقاء منهم، فهنا رخصة تبيح هذا المحرّم إن كان في ترك فعله ضرر بالغ، لأن التقية هنا بمعنى اتقاء الضرر، وليس عقلاً إباحة هذا المحرم الشديد بالضرر اليسير، فلا بد أن يكون بالغاً، وإلا فإن العرف لا يرى لفاعل ذلك المحرم مع الضرر اليسير عذراً.

وفي الثانية قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) ومفادها تغليظ حرمة الردة إلى الكفر بعد الإيمان والوعيد عليه بالغضب والعذاب إلا أن يكون ذلك إظهاراً فقط في مورد الإكراه عليه، فهنا رخصة تبيح هذا الكفر الظاهري غير القلبي إن كان في تركه تحمّل الضرر البالغ الشديد، لأن الإكراه معناه الإجبار على فعل هو دون رغبة المجبر عليه، ولا يتحقق هذا بالإضرار اليسير الذي لا يُعتد به. ومراجعة سبب نزول الآية الكريمة يؤكد خروج الضرر اليسير موضوعاً.

(١) آل عمران: ٢٩

(٢) النحل: ١٠٧

وليس في الآيتين أمر وجوبي أو إلزامي بالعمل بالتقية، بل الأمر فيها الجواز فحسب، وعليه فهي بالأصل رخصة لا عزيمة.

● **المقام الثاني:** يختلف حكم التقية باختلاف الموضوع، فينقسم إلى الأحكام الخمسة، فالواجب ما كان لدفع الضرر الواجب دفعه ولم يترتب عليه مفسدة أقوى، كالتعرض للقتل. والمستحب ما كان للتحرز عن معارض الضرر ولو آجلاً، كترك الصلاة معهم جماعة فيما لو أدى ذلك تدريجاً إلى تضرره منهم لاحقاً. والمباح ما تعادل فعله مع تركه في ميزان الشرع، كإظهار كلمة الكفر وتركه تعرضاً للضرر في بعض الموارد. والمكروه ما كان تركه والتضرر لذلك أرجح من فعله، كشرب من يُقتدى به الخمر بحيث يجز ذلك التباس حكم الحرمة في أذهان الناس. والمحرم ما كان لا ضرر يعتد به في تركه أو كان إلا أن المفسدة المترتبة على فعله أقوى من تلك المترتبة على تركه، كقتل النفس المحترمة وإضرار الغير.

وعليه فالتقية تدور مدار توقع حصول الضرر على النفس أو الجماعة، ويتأكد ذلك بملاحظة معناها اللغوي إذ هي اسم مصدر من «اتَّقَى يَتَّقِي شراً أو ضرراً». ويختلف حكمها باختلاف مصاديقه وما يترتب عليه. وينضم إلى التقية غيرها من قواعد حاکمة على الأحكام الأولية في مثل هذه الصور، كقاعدة لا ضرر، وقاعدة الاضرار.

وعليه فلو لم يكن هناك مورد للضرر؛ فلا تقية مطلقاً، وما توهمه بعضهم من شمول التقية لغير موارد الضرر استناداً إلى ظاهر بعض الأخبار مدفوع أولاً بوجود قرائن داخلية وخارجية على أنها في مورد الضرر، وثانياً بمعارضتها لغيرها فتُحمل عليه، وثالثاً بأن بعضها وارد في باب حُسن المعاشرة ومكارم الأخلاق لا في باب التقية، فيكون خارجاً تخصصاً عن حكم التقية المجرى لفعل الحرام اضطراراً. وهاك تفصيل التوهم والدفع:

قيل أن المستفاد من بعض الأخبار شمول التقية لغير موارد الضرر، كما عن هشام الكندي عن أبي عبد الله عليه السلام: «إياكم أن تعملوا عملاً يعيروننا به، فإن ولد السوء يعير والده بعمله، وكونوا لمن انقطعتم إليه زينا ولا تكونوا عليه شينا. صلوا في عشائهم وعودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، ولا يسبقونكم إلى شيء من الخير فأنتم أولى به منهم، والله ما عبد الله بشيء أحب إليه من الخبء. قلت: وما الخبء؟ قال: التقية»^(١).

يلاحظ عليه: لو تنزلنا عن القرينة الداخلية في ذيل الخبر الدالة على أنه في مورد توقع حصول الضرر وهي تنصيصه (عليه السلام) على التقية وقد عرفت معناها وأنها اتقاء الضرر؛ فإن في بعض ألفاظ الحديث ونظائره قرينة واضحة في صدره على ذلك، وهو ما رواه البرقي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام: «أوصيكم بتقوى الله، ولا تحملوا الناس على أكتافكم فتدلوا. إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: وقولوا للناس حسنا. ثم قال: عودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، واشهدوا لهم وعليهم، وصلوا معهم في مساجدهم. ثم قال: أي شيء أشد على قوم يزعمون أنهم يأتمون بقوم فيأمرونهم وينهونهم فلا يقبلون منهم، ويذيعون حديثهم عند عدوهم، فيأتي عدوهم إلينا فيقولون لنا: إن قوما يقولون ويروون عنكم كذا وكذا، فنحن نقول: إنا براء ممن يقول هذا، فيقع عليهم البراءة»^(٢).

والقرينة قوله عليه السلام: «ولا تحملوا الناس على أكتافكم فتدلوا»، وهو ظاهر في توقع الضرر الموجب للمذلة حال ترك المخالطة معهم بالنحو الذي ذكر. وفي مفاد الخبر أيضاً أن

(١) الكافي ج ٢ ص ٢١٩

(٢) محاسن البرقي ج ١ ص ١٨، والرواية أصح سنداً من سابقتها. وهاهنا نُعمل الترجيح السندي لأن المستنبط حكم تكليفي.

الضرر إذ يقع على الشيعة يقع تالياً على أئمتهم (عليهم السلام) فيأتيهم أعداؤهم ناكرين مع ما يستتبع ذلك من الآثار الخطيرة.

ولحن جميع الأخبار في هذا المضمار وعلى الخصوص الأمرة بالصلاة معهم هو في ظرفية عدم المندوحة، وأن المترتب على ترك ذلك معرفة المخالفين بحال الشيعي فيتعرض بسببه لخطر الهلاك أو الضرر. ففي خبر إسحاق بن عمار الذي رواه الشيخ وذكر فيه إجازة الصادق (صلوات الله عليه) له في أداء الصلاة معهم، قال إسحاق: «.. ثم صليتُ بعد الانصراف أربع ركعات ثم انصرفت، فإذا خمسة أو ستة من جيراني قد قاموا إليَّ من المخزوميين والأمويين فأقعدوني، ثم قالوا: يا أبا هاشم جزاك الله عن نفسك خيراً، فقد والله رأينا خلاف ما ظننا بك وما قيل فيك. فقلت: وأي شيء ذلك؟ قالوا: اتبعناك حين قمت إلى الصلاة ونحن نرى أنك لا تقتدي بالصلاة معنا وقد وجدناك قد اعتددت بالصلاة معنا وصليت بصلاتنا، فرضي الله عنك وجزاك خيراً. قلت: سبحان الله! أملتلي يُقال هذا؟! قال: فعلمت أن أبا عبد الله عليه السلام لم يأمرني إلا وهو يخاف عليَّ هذا وشبهه».^(١)

وعليه لا بد من حمل جميع الأخبار الأمرة بالصلاة معهم على أنها في مورد التقية ووقوع الضرر عاجلاً أم آجلاً، ويؤكد هذا الحمل معارضتها بأخبار أخرى تمنع من الصلاة حتى خلف المحب لأمر المؤمنين (عليه السلام) أكثر من محبته لمن خالفه ما دام لا يتبرأ من هذا المخالف والعدو. فقد روى الشيخ عن إسماعيل الجعفي قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام:

(١) التهذيب ج ٣ ص ٣٨، وعبر الحر العاملي عن هذا الصنف من الأخبار الظاهرة في الإجزاء بورودها مورد شدة التقية كما في تسميته الباب ٣٤ من الوسائل: باب سقوط القراءة خلف من لا يقتدى به مع تعذرهما والاجتزاء بإدراك الركوع مع شدة التقية.

رجلٌ يحب أمير المؤمنين عليه السلام ولا يتبرأ من عدوه، ويقول: هو أحبُّ إليَّ ممن خالفه. قال عليه السلام: هذا مخلطٌ وهو عدوٌّ فلا تصل وراءه ولا كرامة! إلا أن تتقيه»^(١).

وبهذا القول الفاصل لمولانا الباقر (صلوات الله عليه) تعرف أن جميع ما ورد في الأخبار الحاثئة على الصلاة معهم من قبيل أن المصلي معهم في الصف الأول كان كمن صلى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمثال ذلك من روايات إنما وردت مورد تحصين الشيعة المؤمنين من الوقوع في الضرر بتركهم الصلاة معهم. أما إذا ارتفع هذا المحذور اليوم فلا تجوز الصلاة معهم بحال، بل حتى لو لم يرتفع وعرضت عليه عناوين ثانوية كتوهين التشيع وزلزلة عقيدة المؤمنين فإنه يحرم. وليس من دواعي الصلاة معهم إلا التقية حصراً، فما يدعيه بعض القاصرين والزائغين من أن ثمة داعياً بعنوان «التألف وإظهار الوحدة الإسلامية» ليس إلا ابتداعاً لا أصل له في تعاليم أهل بيت النبوة صلوات الله عليهم أجمعين.

هذا ولا كلام في خروج بعض ما أمر به في الأخبار من المخالطة معهم عن مورد التقية تخصصاً، فإن التقية على ما أسلفنا ليست حقيقتها الشرعية إلا ارتكاب محرّم بالعنوان الأولي في صورة الاضطراب واتقاء الضرر وإن آجلاً، وليس في عيادة مرضاهم أو شهود جنازتهم شيئاً من ذلك. ويدل عليه ورود كثير من هذه الوصايا في باب المعاشرة بالمعروف ومكارم الأخلاق،^(٢) فحمل هذه الأخبار على أنها جارية مجرى التقية لنزع اشتراط توقع الضرر فيها؛ هو غلط فاحش.

(١) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٨

(٢) لاحظ مثلاً ما رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٦٣٦ في باب ما يجب من المعاشرة عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام: «.. صلوا عشائركم واشهدوا جنازتهم وعودوا مرضاهم وأدوا حقوقهم فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفري فيسرني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر. وإذا كان على غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره وقيل: هذا =

والأمر بحسن المعاشرة لا يقتصر على المخالفين، بل يشمل غيرهم من الكفار وأهل الكتاب، تحبباً للكل في الإسلام والمسلمين. فقد روى الصدوق عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام: «.. وإن جالسك يهودي فأحسن مجالسته».^(١)

على أن حُسن المعاشرة للمخالفين له ضوابط أيضاً، فقد نظقت الروايات بتحريم إكرامهم أو حتى الضحك في وجوههم! وهو ما رواه الصدوق عن ابن فضال قال: «سمعت الرضا عليه السلام يقول: مَنْ.. أكرم لنا مخالفاً فليس منا ولسنا منه»!^(٢) وما رواه المجلسي عن صاحب رياض الجنان بسنده عن الأصبغ بن نباتة قال: «سمعت مولاي أمير المؤمنين عليه السلام يقول: من ضحك في وجه عدو لنا، من النواصب والمعتزلة والخارجية والقدرية ومخالف مذهب الإمامية ومن سواهم؛ لا يقبل الله منه طاعة أربعين سنة»!^(٣)

ووجه الجمع بين هذه الطائفة من الروايات والتي سبقتها الأمرة بحُسن معاشرتهم هو حمل هذه على المخالفين بالأصالة أو الأشداء، أي كبرائهم وعلماؤهم ممن يكون في إكرامهم والضحك في وجوههم تقوية لباطلهم وخلافهم لأهل بيت النبوة صلوات الله عليهم. وعليه فما يجري الآن من بعض القاصرين والزائغين في ما يسمى بمؤتمرات التقريب والوحدة الإسلامية إذ يُكرمون زعماء المخالفين وعلماؤهم ويعانقونهم ويصلّون وراءهم.. إنما هو مروق عن تعاليم آل محمد عليهم الصلاة والسلام.

= أدب جعفر».

(١) أمالي الصدوق ص ٧٢٧

(٢) صفات الشيعة للصدوق ص ٨

(٣) مستدرک الوسائل للميرزا النوري ج ١٢ ص ٣٢٢ وبحار الأنوار للمجلسي ج ١٠٢ ص ٢١٦

أما ما يلاحظ في الروايات من الحث المؤكد على التزام التقية؛ فجُلّه صادر للقضايا الخارجية في ذلك الزمان، حيث الإمرة لصبيان بني مروان.

والحاصل أن التقية لا كما يظنه الجهال من أنها في كل شيء وشيء بلا ضرورة ولا اضطرار، وإنما هي في مورد توقع الضرر وتدور مداره، فإذا أُحرز جازت التقية وكانت إما واجبة أو مستحبة أو مباحة أو مكروهة، لا أنها تكون واجبة دائماً.

■ أمثلة لسقوط التقية

● المقام الثالث: يسقط الحكم بوجوب التقية إذا كان في تركها مصلحة أولى أو كان في فعلها مفسدة أشد، فيحرم في هذه الصورة العمل بالتقية ويجب تعريض النفس للضرر أو الهلاك. وفي بعض الصور يسقط الحكم بالاستحباب وينقلب إلى الكراهة، أو الإباحة فيما لو تعادلت المصلحتان في العمل والترك، كما مرّ عليك. ويدل على ذلك أمور:

منها؛ ما قام به سيد الشهداء أبو عبد الله الحسين (صلوات الله عليه) في نهضته الخالدة ضد حكومة يزيد بن معاوية (لعنة الله عليهما) إذ لا يختلف اثنان على أن موضوع التقية كان متحققاً في زمانه، وأنه كان يجوز له العمل بها اتقاءً لضرر القتل المحتّم، فيصالح يزيد ويبيعه وينزل على حكمه، وقد كان ذلك مطلب ابن زياد (لعنه الله) حين احتشدت جيوشه في أرض كربلاء. ومع أن المعركة كانت محسومة سلفاً لعدم التكافؤ في ميزان القوة بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، إلا أنه (عليه السلام) آثر أن يضحي بنفسه وبأهل بيته وأصحابه ويعرّضهم جميعاً للقتل والهلاك على أن يبايع أبناء البغايا والطلقاء وأن يعطيهم الدنية من نفسه، فقد أعلنها روجي فداه: «هيهات منا الذلة».

وما قصد إيراد النفس مورد القتل وتعريض الأهل والنساء والأصحاب للضرر على اختلاف أنواعه من قتل وتعذيب وسبي ونهب ونحو ذلك؛ إلا لأنه كانت هناك مصلحة

أولى في ترك العمل بالتقية، وتلك المصلحة تمثلت بما ذكره الإمام (بأي هو وأمي) حين قال: «أريد أن أمر بال معروف وأنهاى عن المنكر»، ومؤداها حفظ الدين وعزل الحاكم الظالم عنه وتمييز الحق من الباطل على مر الزمان لئلا يختلطا فينحرف الناس، وقد تولد هذا التمييز من خلال واقعة الطف التي تركت في النفوس صورة معبرة لا تنمحي عن صراع الخير والشر، كما تركت أثراً شعورياً لا يفنى، والصورة والأثر ينعكسان على فكر الإنسان وسلوكه، فينبذ الشر والظلم والباطل، ويأخذ بالخير والعدل والحق.

والتأمل في ما انطوت عليه مدرسة عاشوراء يلمس بجلاء كيف أن الإمام (عليه السلام) تعمّد ترك التقية حتى في أحلك وأشدّ مراحل المعركة على الأرض مع علمه القطعي بما يجزّه ذلك من استثارة القوم للإقدام على قتله وتسريع ذلك، كل هذا لأن حفظ الدين وإعلاء كلمته يتوقف عليه، وهذه هي المصلحة الأولى التي أسقطت حكم وجوب التقية رغم تحقق الموضوع الضروري بأشدّ مصاديقه.

ومنها؛ ما قام به مولى الموحدين وأمير المؤمنين (صلوات الله عليه) حين كان جالساً مع أناس في الكوفة كان من بينهم المواليون لأبي بكر وعمر عليهم اللعنة، وقد صرّح (عليه السلام) ببيان ظلمهم وجورهم في مقالة مفصّلة رداً على سؤال استنكاري من الملعون الأشعث بن قيس الكندي، كاشفاً للغطاء تاركاً للتقية رغم ما سببه ذلك من غضب وضيق في صدور المخالفين الذين كانوا في واقع الحال أكثر أهل عسكره، ورغم أن ذلك يعرضه لخطر الاعتداء عليه من قبلهم، وهو ما حصل بالفعل لاحقاً حين أقدم الشقي عبد الرحمن ابن ملجم (لعنه الله)^(١) باغتياله وهو ساجد في محراب الصلاة.

(١) لا يخفى أن الخوارج - ومنهم ابن ملجم - إنما تبنّوا عقيدتهم على تعظيم وتفضيل أبي بكر وعمر، وهم أهل فتن وغدر. وهذا البيان الذي صدر منه (صلوات الله عليه) إنما صدر بسبب سؤال استنكاري يتعلق =

وقد وصف ما جرى بسبب كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) سليم بن قيس الهلالي (رضوان الله تعالى عليه) الذي كان حاضراً في المجلس، فقال: «فلم يبقَ يومئذ من شيعة علي عليه السلام أحد إلا تهلَّل وجهه وفرح بمقاتلته، إذ شرح أمير المؤمنين عليه السلام الأمر وباح به وكشف الغطاء وترك التقية».

ولم يبقَ أحد من القراء^(١) ممن كان يشك في الماضين^(٢) ويكفُّ عنهم ويدع البراءة منهم ورعاً وتأثماً إلا استيقن واستبصر وحسَّن رأيه وترك الشك يومئذ والوقوف. ولم يبقَ حوله ممن أبى بيعته إلا على وجه ما بوع عليه عثمان والماضون قبله^(٣) إلا رُئيَ ذلك في وجهه وضاق به أمره وكره مقاتلته. ثم إنه استبصر عامتهم وذهب شكهم.

فما شهدت يوماً قطُّ على رؤوس العامة كان أقرَّ لأعيننا من ذلك اليوم، لما كشف أمير المؤمنين عليه السلام للناس من الغطاء وأظهر فيه من الحق وشرح فيه من الأمر وألقى فيه من التقية.

= بأي بكر وعمر من الأشعث الخارجي، وقد قال فيه مغضباً: «فما يمنعك يا ابن أبي طالب حين بوع أخو تيم (أي أبو بكر) وأخو بني عدي بن كعب (أي عمر) وأخو بني أمية بعدهما (أي عثمان) أن تقاتل وتضرب بسيفك؟» كتاب سليم ص ٦٦٣

(١) القراء جمع قارئ القرآن، وهو كناية عن العلماء آنذاك أو من لهم نصيب من العلم فيتقدمون به أقوامهم.
(٢) أي يشك في أمر الحكام الماضين أي بكر وعمر وعثمان هل أنهم كانوا على الحق أم على الباطل، فيدع البراءة منهم ورعاً وتأثماً لعدم وقوفه القطعي على حالهم.

(٣) أي الطائفة البكرية، فهؤلاء كانوا الأكثرية ولم يبايعوا أمير المؤمنين (عليه السلام) ولم يقاتلوا معه باعتقاد أنه حجة الله المنصوص عليه بالخلافة كما بايعه الشيعة، وإنما بايعوه كما بايعوا الثلاثة قبله كحاكم دنيوي فقط.

وَكثُرَت الشيعة بعد ذلك المجلس من ذلك اليوم وتكلموا^(١) وقد كانوا أقل أهل عسكره، وسائر الناس يقاتلون معه على غير علم بمكانه من الله ورسوله، وصارت الشيعة بعد ذلك المجلس أجَلَّ الناس وأعظمهم.

وذلك بعد وقعة أهل النهروان وهو يأمر بالتهئية والمسير إلى معاوية، ثم لم يلبث أن قُتل صلوات الله عليه، قتله ابن ملجم لعنه الله غيلةً وفتكاً، وقد كان سيفه مسموماً قد سمّه قبل ذلك. وصلى الله على سيدنا أمير المؤمنين وسلّم تسليمًا^(٢).

فتأمل في قول سليم: «شرح أمير المؤمنين عليه السلام الأمر وباح به وكشف الغطاء وترك التقية.. وأظهر فيه من الحق وشرح فيه من الأمر وألقى فيه من التقية» تعرف أن موضوع التقية كان متحققاً آنذاك، إلا أن مولانا الأمير (صلوات الله عليه) تركها رغم ذلك تقديماً للأهم على المهم، فالأهم هو تبصير أكثرية الناس - وهم من المخالفين - بحقه ومكانه من الله ورسوله صلى الله عليه وآله، وتعزية من سبقه من الحكام الظالمين وكشفهم على حقيقتهم ليتبرأ الناس منهم، وليعرفوا دينهم الذي ارتضاه الله تعالى لهم، ذلك الدين الذي لا تجوز فيه موالاة الظالمين.

وقد أثمر ذلك عُقبى حسنة تمثلت في استبصار عامة الناس وذهاب شكهم، وإن أدى إلى عُقبى أخرى سيئة تمثلت بزيادة نفور كثير من الناس عنه وهمتهم في قتله وقتل شيعته، إذ لا يخفى أن هذه الكلمات وأمثالها كانت مثار استجلاب سخط المخالفين على اختلاف

(١) أي بدأوا بالكلام والتعبير عن عقيدتهم في أمير المؤمنين (عليه السلام) بصراحة، وكانوا قبل ذلك لا يستطيعون بسبب ظروف الحروب الثلاثة، الجمل وصفين والنهروان، فضلاً عن كونهم أقلية.

(٢) كتاب سليم بن قيس الهلالي - الحديث الثاني عشر ص ٦٧٠. هذا وفي كتاب سليم كثير من الأحاديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في بيان باطل أعدائه المتقدمين والمتأخرين. فلاحظها.

مشاربهم، كما أن معاوية (لعنه الله) كان يستغل صدور أمثال هذه الخطب والكلمات من أمير المؤمنين (عليه السلام) ليحرّض الناس ضده ويؤلّبهم عليه، ولم يكن ذلك يخفى على أمير المؤمنين عليه السلام، فقد ورد في كتاب أرسله إليه رجل من شيعته في الشام: «إن معاوية استنفر الناس ودعاهم إلى الطلب بدم عثمان، وكان في ما يحضّهم به أن قال: إن عليا قتل عثمان وأوى قتلته، وإنه يطعن على أبي بكر وعمر، ويدّعي أنه خليفة رسول الله وأنه أحق بالأمير منها. فنفرت العامة والقراء واجتمعوا على معاوية إلا قليلا منهم»^(١)

فها هنا ورغم كل تلك الظروف الحرجة ترك الأمير (عليه السلام) التقية، ما يعني سقوط حكمها الوجوبي رغم تحقق موضوعها الضروري لأن في تركها مصلحة أولى راجحة. ولا يقال: أن احتمال الضرر كان متفيا لأن الأمير (عليه السلام) كان حاكم الوقت؛ إذ يقال: حتى وإن كان فإن ذلك لا يجعله بمعزل عن وقوع الضرر عليه والدليل اغتياله عليه السلام، ثم إن الضرر لا ينحصر توجهه إليه فقط وإنما يشمل أصحابه وشيعته، فيكون إضرارا وهو محرّم أيضا، وقد سقطت حرمة لما بيناه من وجود المصلحة الأهم. على أن سليم نفسه قد عبّر عن فعل الأمير بأنه ترك للتقية، ما يعني أن موضوعها كان متحققا وإلا لما كان للترك معنى.

ومنها؛ محاورة أمير المؤمنين (عليه السلام) مع ميثم التمار (رضوان الله تعالى عليه) إذ قال له: «يا ميثم.. كيف أنت إذا دعاك دعي بني أمية إلى البراءة مني؟ فقلت: يا أمير المؤمنين.. أنا والله لا أبرأ منك. قال عليه السلام: إذن والله يقتلك ويصلبك! قلت: أصبر، فإن ذلك في الله قليل. قال عليه السلام: يا ميثم.. إذن تكون معي في درجتي»^(٢).

(١) كتاب سليم بن قيس الهلالي - الحديث السابع والستون ص ٩١٧

(٢) الوسائل ج ١٦ ص ٢٢٧ عن رجال الكشي والخرائج والجرائح للراوندي.

والرواية تدل على استحباب ترك التقية حتى مع التيقن من وقوع ضرر بالغ كالقتل والصلب، إذا كان الترك تأكيداً لولاية أهل البيت (عليهم السلام) خاصة ممن يكون في مقام مَنْ يُتَدَى به والأنظار شاخصة إليه، ولذا أقدم ميثم على ذلك فعلاً في ما بعد، وكذا رُشيد الهجري وحجر بن عدي وكميل بن زياد وقنبر (عليهم جميعاً رحمة الله ورضوانه) فإنهم جميعاً قُتِلُوا وصُلِبُوا وقُطِعَتْ أيديهم وأرجلهم وألستهم، ولم يختاروا البراءة من مولا هم أمير المؤمنين (عليه السلام) لأنهم لو فعلوا لزلزل ذلك نفوس كثير من الشيعة آنذاك، إذ كانت أنظار الشيعة شاخصة نحو هؤلاء المقدمين المبرزين من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، ولا شك أن رضوخهم للتهديد وقبولهم بإعلان البراءة يحطُّ من العزائم ويضعف القلوب، وهو ما تكون له آثار سلبية كثيرة لاحقاً، أسوأها اضمحلال التشيع أو ضعفه.

هذا وثمة نقطة في ذيل الرواية وهي أن الذي يضحي في سبيل الدين بنفسه مستقبلاً الضرر وتاركا التقية يكون له مقام عظيم عند الله تعالى، كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لميثم: «إذن تكون معي في درجتي».

لكن أشكل على الاستفادة من الرواية بالقول: إنه لا يُستفاد منها رجحان ترك التقية في مثل هذا المورد لمعارضتها برواية أخرى في الموضوع نفسه رواها الكليني عن محمد بن مروان قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: ما مَنَعَ ميثمَ رحمه الله من التقية؟ فوالله لقد علم أن هذه الآية نزلت في عمار وأصحابه: إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ»^(١) وهي تدل على اعتراضه (عليه السلام) على ميثم وأنه كان ينبغي له العمل بالتقية لا تركها.

ويُرد الإشكال بالقول: إن اسم (ميثم) ليس ممنوعاً من الصرف، فلو كانت العبارة في مقام الاعتراض لوجب أن يكون منصوباً لسبوقه بفعل (مَنَعَ) فتكون العبارة (ما مَنَعَ ميثماً)،

إلا أن العبارة على خلاف ذلك في جميع النسخ حيث ورد اسم (ميثم) مرفوعاً، فلا بد من أن يكون فعل (منع) مبنيًا للمجهول، فتقرأ العبارة «ما مُنِعَ ميثمٌ رحمه الله من التقية» وبذلك تكون الرواية في مقام المدح، ومعناها أن ميثمًا (رضوان الله تعالى عليه) مع أنه لم يُمنع شرعاً من العمل برخصة التقية لتحقيق موضوع الضرر في حقّه، ومع علمه بهذا الحكم ووقوفه عليه في آية عمار وأصحابه رحمة الله عليهم؛ إلا أنه أثر ترك التقية وعدم إظهار براءته من أمير المؤمنين صلوات الله عليه. فيثبت رجحان ترك التقية في مثل هذه الموارد.

ولعل قوله عليه السلام: «ما مُنِعَ ميثمٌ رحمه الله من التقية» كان جواباً على من ظنَّ أن ميثمًا كان ممنوعاً من قبل أمير المؤمنين (عليه السلام) من إظهار البراءة منه تقيّةً، وذلك لما رُوي عن الأمير عليه السلام: «سُتَدْعَوْنَ إلى سبي فسبوني! وتُدْعَوْنَ إلى البراءة مني فمُتَدَّوْا الرِّقَابَ فَإِنِّي عَلَى الْفِطْرَةِ»^(١) فكان كلام الصادق (عليه السلام) في معرض تفنيد أن ميثمًا لم يكن ممنوعاً لا بمقتضى هذا الحديث ولا بمقتضى غيره، فكان يجوز له إظهار البراءة تقيّةً إلا أنه لم يفعل احتساباً للأجر عند الله تعالى. زد على ذلك أن الصادق (عليه السلام) نفى في رواية أخرى أن يكون الأمير (عليه السلام) قد نهى عن إظهار البراءة منه مطلقاً حتى في مورد التقية، فقد روى الكليني عن مسعدة بن صدقة قال: «قيل لأبي عبد الله عليه السلام: إن الناس يروون أن علياً عليه السلام قال على منبر الكوفة: أيها الناس.. إنكم ستُدْعَوْنَ إلى سبي فسبوني! ثم تُدْعَوْنَ إلى البراءة مني فلا تبرؤوا مني. فقال: ما أكثر ما يكذب الناس على علي

(١) أمالي الشيخ الطوسي ص ٢١٠، ويمكن اعتبار الحديث من جملة ما يُستدل به على جواز ترك التقية ومدّ الرقاب للسيف في مورد إعزاز ونصرة الأئمة الطاهرين عليهم السلام؛ لولا أن الاستدلال مخدوش بورود معارض له وهو تاليه أعلاه، ولا تنفع عندنا محاولة طرح المعارض بتضعيف سنده بمسعدة بن صدقة، إذ هذا الذي يروي عنه هارون بن مسلم والواقع في أسناد كامل الزيارات وتفسير القمي ثقة على الأقرب، وهو غير مسعدة بن صدقة العامي أو البتري الذي يروي عن الباقر (عليه السلام) فقط.

عليه السلام! ثم قال: إنما قال: إنكم ستدعون إلى سبي فسبوني، ثم استدعون إلى البراءة مني وإني لعل على دين محمد صلى الله عليه وآله، ولم يقل: لا تبرؤوا مني. فقال له السائل: أرايت إن اختار القتل دون البراءة؟ فقال: والله ما ذلك عليه، وما له إلا ما مضى عليه عمار بن ياسر حيث أكرهه أهل مكة وقلبه مطمئن بالإيمان، فأنزل الله عز وجل فيه: **إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**. فقال له النبي صلى الله عليه وآله عندها: يا عمار.. إن عادوا فعد، فقد أنزل الله عز وجل عذرَكَ وأمرَكَ أن تعود إن عادوا^(١).

فإن قلت: ها قد أوجب الصادق (عليه السلام) في رواية مسعدة بن صدقة التقية وحرّم عدمها. قلنا: إنما نفى الإمام (عليه السلام) وجوب ترك التقية بقوله: «والله ما ذلك عليه» أي ليس واجبا عليه اختيار القتل، لا أنه أوجب عليه العمل بالتقية، والفرق شاسع. فإن قلت: فإنه قد رجّح التقية على عدمها بقوله: «وما له إلا ما مضى عليه عمار..» قلنا: ستفهم في زبدة المخض أنه لو كانت المصالح المترتبة على العمل بالتقية أعظم وأولى من تلك المترتبة على تركها، كان العمل بها راجحا، والعكس بالعكس، فلو كانت المصالح المترتبة على ترك التقية أعظم وأولى من تلك المترتبة على العمل بها، كان تركها راجحا، وعليه فهذا الحديث وأمثاله مما ينص أو يُستشعر منه رجحان التقية على عدمها إنما هو ناظر إلى الظروف الموضوعية لذلك الزمان حيث كانت المصالح المترتبة على التزام التقية أعظم وأولى، أما مسألتنا فهي في العكس، كما في مثال ميثم التمار (عليه الرحمة والرضوان) على ما ذكرناه من فلسفة تركه للتقية، فحينئذ في مثل هذه الموارد حيث يتوقف إعلاء اسم الإسلام والتشيع والولاء لآل محمد (عليهم السلام) على ترك التقية فإنه يكون الراجح والأولى والأثوب عند الله تعالى، وفي بعض الصور يجب.

ومنها؛ ما رواه الكليني (عليه الرحمة) عن عبد الله بن عطاء قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: رجُلان من أهل الكوفة أُخِذا، فقبل لهما: ابرئنا من أمير المؤمنين! فبرئ واحدٌ منهما وأبى الآخر، فخلِّي سبيل الذي برئ وقُتل الآخر؟ فقال عليه السلام: أما الذي برئ فرجلٌ فقيه في دينه، وأما الذي لم يبرأ فرجلٌ تعجَّل إلى الجنة»^(١).

ومفاد الحديث أن اثنين من شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) قد اعتقلتُهما السلطات الظالمة في الكوفة وأمرتهما بالبراءة منه، فاستجاب أحدهما تقيّةً ودفعاً لخطر القتل عن نفسه فنجى، وامتنع الآخر وأبى غيراً ووفاءً فقتل. وقد صوّب الإمام الباقر (عليه السلام) كلا الفعلين ممتدحا الذي لم يبرأ بأنه قد تعجَّل إلى الجنة، فيما الذي برئ تأخر.

ودلالة الحديث استجباب ورجحان ترك التقيّة حتى مع إحراز وقوع الضرر إذا كان في الترك إعزاز لمقام الأئمة الطاهرين (عليهم السلام) وتوطين للنفس وللجماعة على التضحية في سبيل ولايتهم. فإن قيل: إن وصفه (عليه السلام) للذي برئ بأنه فقيه في دينه مُشعرٌ بأن فعله كان أرجح؛ قيل: بل إن وصفه (عليه السلام) للذي لم يبرأ بأنه تعجَّل إلى الجنة هو المشعر بأن فعله كان أرجح، إذ مجرد السبق إلى الجنة أفضل ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٢) وليس وصفه (عليه السلام) للذي برئ بأنه فقيه إلا بيانا لعلم هذا الأخير بحكم التقيّة الذي بمقتضاه صنع ما صنع اضطرارا. ولا يُقال: فإن ما يقابل الفقيه هو الجاهل فيُحمل الذي لم يبرأ على كونه جاهلا قاصرا لم يعلم بحكم التقيّة؛ إذ يُقال: الحديث ليس في مقام المقابلة، ودعوى عدم علمه تحتاج إلى دليل، وسياق الحديث يدل على علمه إذ

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٢١

(٢) الواقعة: ١١ - ١٢

كان صاحبه المأخوذ قد برئ قبله وخُلِّي سبيله، ثم إن الإمام (عليه السلام) قد امتدحه بما لا ينطوي على إعداره لجهله.

وبالنتيجة؛ فلو تنزلنا عن رجحان ترك التقية في مثل هذا المورد على فعلها، فلا مندوحة عن القول بتساوي الأمرين في ميزان الشرع، ما يعني جواز ترك التقية حتى مع التيقن من وقوع الضرر، وهو المطلوب.

ومنها؛ ما رواه ابن أبي جمهور الأحسائي من أن «مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من المسلمين،^(١) فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ فقال: رسول الله. قال: فما تقول في؟ قال: أنت أيضاً.^(٢) فخلاه. وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ فقال: رسول الله. قال: فما تقول في؟ قال: أنا أصم! فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد جوابه الأول، فقتله! فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني فقد صدع بالحق، فهنيئاً له».^(٣)

والكلام في دلالة الحديث كالكلام في دلالة سابقه، من رجحان ترك التقية في مثل هذه الموارد حتى مع تيقن وقوع الضرر، مع ما أشار إليه الحديث من أن تارك التقية هاهنا أعظم أجراً من الفاعل، فإن الأول مدحه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأنه قد صدع بالحق «فهنيئاً له» أما الثاني فقد أعذره فحسب بأنه قد أخذ برخصة الله أي التقية، ولم يمتدحه بشيء. فتدبر.

(١) أي أسرهما، وكان ذلك في أواخر حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث بدأ مسيلمة (لعنه الله) دعوته الباطلة وبدأ يعتدي فيها على المسلمين.

(٢) يعني أنت أيضاً يا مسيلمة رسول الله!

(٣) غوالي اللثالي ج ٢ ص ١٠٤

ومنها؛ ما رواه الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) من أن سلمان الفارسي (رضوان الله تعالى عليه) مرّ بقوم من يهود المدينة فجعلوا يعذبونه ويضربونه بسياطهم قائلين: «لا نزال نضربك بسياطنا حتى تزهر روحك أو تكفر بمحمد! فقال سلمان: ما كنت لأفعل ذلك، فإن الله قد أنزل على محمد: الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ؛ وإن احتمالي لمكارهكم لأدخل في جملة من مدحه الله بذلك؛ سهلٌ عليّ يسيراً. فجعلوا يضربونه بسياطهم.. فقالوا له: يا سلمان ويحك! أوليس محمدٌ قد رخص لك أن تقول كلمة الكفر بما تعتقد ضده للتقية من أعدائك؟ فما بالك لا تقول ما يفرج عنك للتقية؟ فقال سلمان: إن الله تعالى رخص لي في ذلك ولم يفرض عليّ، بل أجاز لي أن لا أعطيكم ما تريدون وأحتمل مكارهكم وأجعله أفضل المنزلتين، وأنا لا أختار غيره»^(١).

وفي الحديث دلالة بيّنة على رجحان ترك التقية وتحمل المكاره والأضرار التماساً للفضل والأجر وعلو المنزلة، وأن التقية في مثل هذا المورد رخصة لا عزيمة وفرض، فمن يطلب ما طلبه سلمان (عليه الرحمة والرضوان) من أفضل المنزلتين؛ يختار ترك التقية.

والظاهر أن سبب امتناع سلمان عن التقية رغم جوازها له؛ هو حرصه على أن لا يفرح اليهود بإذلالهم لواحد من أكابر المسلمين بقهره على إظهار الكفر، فينعكس ذلك تالياً على عزائم الكفار إيجاباً في حربهم للإسلام والمسلمين، ويظنون أن بمقدورهم كسرهم والانتصار عليهم لما أبداه سلمان - وهو من هو - من الرضوخ والضعف، فكيف بالباقيين.

وعليه تتأكد مطلوبة قياس المصالح والمفساد المترتبة على فعل التقية وتركها، فما كان طرفه أرجح وجب أو استحب العمل به.

(١) تفسير العسكري عليه السلام ص ٦٨ وفي آخر الخبر أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد امتدح سلمان (عليه الرضوان) لفعله وتضحيته، ثم انتقم من اليهود الذين عذبوه.

■ التقية مشروطة بأن لا تؤدي إلى الفساد في الدين

ومنها؛ ما رواه الكليني عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال في حديث: «وتفسير ما يُتَّقَى مثل أن يكون قوم سوء ظاهر حكمهم وفعلهم على غير حكم الحق وفعله، فكل شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقية مما لا يؤدي إلى الفساد في الدين فإنه جائز»^(١).

ومحل الشاهد قوله عليه السلام: «مما لا يؤدي إلى الفساد في الدين» فإنه صريح في حرمة التقية إذا ترتب عليها فساد في الدين، ولهذا ذكروا أنه يحرم على الفقيه في هذه الصورة الإفتاء بما هو خلاف الحق تقيّة، كالإفتاء بجواز ما ابتدعه لهم عمر كالتكفير في الصلاة وشرب النبيذ وقول الصلاة خير من النوم في أذان الصبح وتحريم المتعتين وتجويز التراويح وما إلى ذلك من بدع ومستحدثات، فيجب على الفقيه وقتئذ أن يوطن نفسه على تحمّل الضرر حتى وإن بلغ مبلغ القتل لئلا يقع الفساد في الدين حين يفتي بخلاف الحق فيشتبه ذلك على العوام ولا يمكن الرجوع عنه.

ولهذا نجد في تاريخ فقهاءنا العظام سلوك كثير منهم سبيل الشهادة والتضحية بالنفس والأهل والذرية، كمحمد بن الحسن بن علي القتال النيسابوري، والفضل بن الحسن الطبرسي، والحسين بن محمد بن علي الميكالي، ومحمد بن مكي العاملي المعروف بالشهيد الأول، وزين الدين بن علي العاملي المعروف بالشهيد الثاني، والقاضي نور الله المرعشي التستري المعروف بالشهيد الثالث، والفقيه شهاب الدين عبد الله بن محمود بن السعيد التستري الخراساني، وغيرهم من علمائنا المتقدمين والمتأخرين، قدس الله أرواحهم الزكية.

(١) الكافي ج ٢ ص ١٦٨

ومنها؛ ما رواه المفيد عن أبي الحسن الكاظم (صلوات الله عليه) أنه قال: «قُل الحق وإن كان فيه هلاكك فإن فيه نجاتك، ودع الباطل وإن كان فيه نجاتك فإن فيه هلاكك».^(١)

وجه الاستدلال بالخبر أمره (عليه السلام) بقول الحق وإن كان موجبا للتعرض للضرر الهلاك، وعدم قول الباطل وإن كان موجبا لحفظ النفس. وبعد الجمع بينه وبين الأحاديث الواردة في رخصة التقية يُتَحَصَّل جواز تركها والتعرض للضرر بل الهلاك إذا ما توقفت إقامة الحق على ذلك، وعلى هذا يكون محمول الخبر، إذا لا يبدو أن المراد هو فقط التلفظ بلفظ الحق، فهذا بمجرده لا يرجح على التقية لحفظ النفس من الهلاك، وإنما المراد إقامة الحق والحفاظ عليه، فلو كان عمله بالتقية مسببا لضياع الحق كليةً أو اختلاطه بالباطل كان الواجب عليه - أو الراجح حسب الفرض - ترك التقية وتحمل الضرر ولو بلغ مبلغ القتل، فإن في ذلك النجاة في الآخرة.

ومنها؛ ما رواه الكليني عن أبي جعفر الباقر (صلوات الله عليه) أنه قال: «يكون في آخر الزمان قومٌ يتبع فيهم قومٌ مراؤون،^(٢) يتقرؤون ويتنسكون، حدثاء سفهاء، لا يوجبون أمراً بمعروفٍ ولا نهياً عن منكرٍ إلا إذا أمِنوا الضرر! يطلبون لأنفسهم الرخص والمعاذير، يتبعون زلات العلماء وفساد عملهم! يقبلون على الصلاة والصيام وما لا يَكْلِمُهُمْ في نفسٍ ولا مالٍ،^(٣) ولو أضرت الصلاة بسائر ما يعملون بأموالهم وأبدانهم لرفضوها كما رفضوا أسمى الفرائض وأشرفها! إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تُقام الفرائض، هنالك يتم غضب الله عز وجل عليهم فيعمُّهم بعقابه، فيهلك الأبرار في دار الفجَّار،

(١) الاختصاص ص ٣٢

(٢) أي يُظهرون التزامهم بالدين ظاهراً لكنهم في الواقع غير ملتزمين.

(٣) أي ما لا يصيبهم في أنفسهم أو أموالهم، فلا يتعرضون للضرر.

والصغار في دار الكبار. إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصالحاء، فريضة عظيمة بها تُقام الفرائض وتأمين المذاهب^(١) وتحلُّ المكاسب وتُردُّ المظالم، وتُعمَّر الأرض ويُتَصَف من الأعداء^(٢) ويستقيم الأمر، فأنكروا بقلوبكم والفظوا بألستكم وصكُّوا بها جباههم! ولا تحافوا في الله لومة لائم، فإن اعظوا وإلى الحق رجعوا فلا سبيل عليهم، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣) هنالك فجاهدوهم بأبدانكم وابغضوهم بقلوبكم غير طالبين سلطاناً ولا باغين مالاً ولما مريدين بظلم ظفرًا، حتى يفيئوا إلى أمر الله ويمضوا على طاعته^(٤).

وفي الحديث ذم صريح لأولئك الذين «لا يوجبون أمراً بمعروفٍ ولا نهياً عن منكرٍ إلا إذا أمنوا الضرر» فقد سَمَّاهم الإمام (عليه السلام) بالمرائين الحدباء السفهاء الذين يطلبون لأنفسهم الرُّخص والمعاذير ويتبعون زلَّات العلماء. ومفهومه جواز التعرض للضرر وترك التقية أداءً لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن التقية تكون حاكمة على هذه الوظيفة في بعض الموارد والصور لا فيها كلها، فإن أمر إقامة الدين والتصدي للظالمين والمنحرفين أولى وأهم، ولا يتأتَّى ذلك إلا بأداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أكمل وجه.

ولعل الحديث ناظر إلى تلك المرتبة العليا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي التي عبَّر عنها بأن بها «تُقام الفرائض وتأمين المذاهب وتحلُّ المكاسب وتُردُّ المظالم وتُعمَّر

(١) أي تصبح الطرق إلى التزام الدين آمنة.

(٢) أي يُعاقب الأعداء الظالمون ويُقتص منهم.

(٣) الشورى: ٤٣

(٤) الكافي ج ٥ ص ٥٥

الأرض ويُتَصَف من الأعداء ويستقيم الأمر» فإن هذه الأمور لا تتحقق بالمراتب الدنيا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي تلك المرتبة العليا - والتي تعني إقامة الدين والحق والعدل ومنع اندثار ذلك - تسقط التقية لمنافاتها لتحقيق الأمر والنهي في الواقع الخارجي، فيكون الذي يرَجِّحها مذموما مستحقا لغضب الله تعالى وعقابه، إذ هو من أولئك الذين لا يوجبون أمرا بمعروف ولا نهيا عن منكر إلا إذا أمنوا الضرر.

■ التقية المغلوطة سلاح يُشهر في وجه صاحب الأمر عليه السلام!

ومن الإشارات المهمة في هذا الحديث الشريف أن التقية ستقلب مع توالي الزمان من رخصة شرعية إلى مرض عضال يعطلُّ أشرف الوظائف الدينية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهؤلاء الجبناء الذين ذمَّهم الإمام الباقر (عليه السلام) يظهرون في آخر الزمان، وهم يتنازلون عن دينهم حتى لا يتعرضوا للضرر، بل إنهم - كما قال الإمام عليه السلام - لو وجدوا الصلاة تضرهم في مصالحهم وأموالهم وأبدانهم لرفضوها أيضا!

هؤلاء مستعدون للالتزام بالصلاة والصيام والحج وغير ذلك من أحكام لا يتعرضون بسببها للضرر؛ إلا أنهم غير مستعدين للالتزام بحكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه يعرضهم للضرر! فيفلسفون جبنهم وخوارهم باسم التقية!

ومما يؤكد استفحال هذه الحالة المرضية في آخر الزمان أن المولى صاحب العصر (صلوات الله عليه وعجل الله فرجه الشريف) عندما يظهر ويطالب المنتحلين للتشيع بنصرته والجهاد معه فإن ردَّهم سيكون الخذلان بذريعة التزام التقية! ففي ذلك الزمان ستكون التقية بالنسبة للناس أحبَّ إليهم من آبائهم وأمهاتهم!

وهذا هو ما كشفه الإمام الصادق (عليه السلام) إذ قال: «إنما جُعِلَت التقية ليُحقَّن بها الدم، فإذا بلغت التقية الدَّم فلا تقية! وأيمُّ الله لو دُعيتم لتنصرونا لقلتم: لا نفعل! إنما نتقي!»

ولكانت التقية أحبَّ إليكم من آبائكم وأمهاتكم! ولو قد قام القائم ما احتاج إلى مساءلتكم عن ذلك ولأقام في كثيرٍ منكم من أهل النفاق حدَّ الله!»^(١)

■ لا للتساهل في التقية

● المقام الرابع: تشخيص الضرورة الموضوعية المبيحة لارتكاب الحرام تقيّةً هو بيد المكلف، لقول الباقر عليه السلام: «التقية في كل ضرورة، وصاحبها أعلم بها حين تنزل به».^(٢)

بيد أنه ينبغي للمكلف أن لا يتساهل في تسويغ التقية لنفسه، فإن لم يكن ثمة محذور ضرري معتد به، أو كان إلا أن استقباله أو جبه الشرع؛ فإن التقية تكون وقتذاك حراما عليه ويترتب على فعلها العقاب، تماما كالذي يعمل بالتميم ويصلي مع حضور الماء بغير عذر. ولذا فإن على المكلف أن يعي موارد جواز التقية وأن يتأمل جيدا في ما يُبطل به لثلاث تقية في غير موضعها الذي رخصها فيه الشارع.

وقد جاءت في هذا الشأن تحذيرات متعددة من قبل الأئمة الأطهار عليهم السلام:

فمنها؛ ما رواه الكليني عن مسعدة بن صدقة قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول وسئل عن إيمان من يلزمنه حقه وأخوته كيف هو وبما يثبت وبما يبطل؟ فقال: إن الإيمان قد يُتخذ على وجهين؛ أما أحدهما فهو الذي يظهر لك من صاحبك، فإذا ظهر لك منه مثل الذي تقول به أنت حقّت ولايته وأخوته، إلا أن يجيء منه نقضٌ للذي وصف من نفسه

(١) التهذيب ج ٦ ص ١٧٢ عن أبي حمزة الثمالي رضوان الله عليه، ولت الشيعية في هذا الزمان يحفظون هذا

الحديث ويتدبرون فيه ليدرّكوا المصيبة التي يوقعون أنفسهم فيها باسم التقية!

(٢) الكافي ج ٢ ص ٢١٩ عن زرارة رضوان الله تعالى عليه.

وأظهره لك، فإن جاء منه ما تستدل به على نقض الذي أظهر لك خرج عندك مما وصف لك وأظهر، وكان لما أظهر لك ناقضا إلا أن يدعي أنه إنما عمل ذلك تقيّةً، ومع ذلك يُنظر فيه، فإن كان ليس مما يمكن أن تكون التقيّة في مثله لم يُقبل منه ذلك، لأن للتقيّة مواضع من أزاها عن مواضعها لم تستقم له»^(١).

ومنها؛ ما رواه الإمام أبو محمد العسكري (عليه السلام) في تفسيره عن الإمام علي ابن الحسين زين العابدين (عليه السلام) أنه قال في حديث: «هذه أحوال من كتم فضائلنا وجحد حقوقنا وسمّى بأسمائنا ولقّب بألقابنا وأعان ظالمنا على غصب حقوقنا ومالاً علينا أعداءنا، والتقيّة لا تزعجه والمخافة على نفسه وماله وحاله لا تبعثه. فاتقوا الله معاشر شيعتنا، لا تستعملوا الهوينا ولا تقيّة عليكم، ولا تستعملوا المهاجرة والتقيّة تمنعكم»^(٢).

(١) الكافي ج ٢ ص ١٦٨، وبمقتضاه فإن الذين نسمعهم اليوم ينقضون عقيدة التشيع مما لا للنواصب هم عندنا خارجون عنه إلا أن يشبوا لنا أن الذي صدر منهم كان تقيّة مقبولة شرعاً. وأتّى لهم سوّد الله وجوههم! (٢) تفسير الإمام العسكري عليه السلام ص ٤٦٣، والهويّنا تصغير مؤنث للهون وهي هنا بمعنى التذلل والخضوع، والمهاجرة هنا بمعنى التخاضع والمعاداة في القول والفعل. هذا وقد لاحظنا في هذا التفسير الشريف تحذيرات من التقيّة الباطلة وتعزيزات للهمة الدينية في كسر الناصب المخالف، ونستشف من هذا أن الإمام (عليه السلام) كان قلقاً على ما سوف يستشري بعده - وخاصة مع بدء زمن الغيبة الطويل - من مرض الخنوع والذل والانحزام باسم التقيّة، لذا صدرت منه تلك التحذيرات وحدثت بتلك الأحاديث عن آبائه الطاهرين (عليهم السلام) لكي لا يقع الشيعة في الهوان تحت عنوان التقيّة، وليكونوا دائماً في عزة نفس وإباء أمام الكفار والنواصب والمخالفين، فلا يتوانوا عن بيان الحق خوفاً من أحد.

وأما الكلام في اعتبار هذا التفسير المروي عن مولانا العسكري (عليه السلام) فليس هاهنا محلّه، وقد تعرّضنا إليه مفصّلاً في المحاضرات.

ومنها؛ ما رواه أيضا الإمام أبو محمد العسكري (عليه السلام) في تفسيره عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من سُئل عن علم فكتمه حيث يجب إظهاره ويزول عنه التقية؛ جاء يوم القيامة مُلجماً بلجامٍ من النار!»^(١)

ومنها؛ ما رواه أيضا الإمام أبو محمد العسكري (عليه السلام) في تفسيره من حديث حجب الإمام الرضا (عليه السلام) لبعض شيعته وجفائه لهم، فقالوا: «يا بن رسول الله.. ما هذا الجفاء العظيم والاستخفاف بعد الحجاب الصعب؟ أي باقية تبقى منا بعد هذا؟! فكان مما أجابهم به عليه السلام: «لדعواكم أنكم شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ويحكم! إنما شيعته الحسن والحسين عليهما السلام وسلمان وأبو ذر والمقداد وعمار ومحمد ابن أبي بكر؛ الذين لم يخالفوا شيئا من أوامره ولم يرتكبوا شيئا من زواجره. فأما أنتم إذا قُلتُم أنكم شيعة وأنتم في أكثر أعمالكم له مخالفون، مقصرون في كثير من الفرائض ومتهاونون بعظيم حقوق إخوانكم في الله، وتَتَّقون حيث لا تجب التقية، وتركون التقية حيث لا بد من التقية» إلى تمام الخبر.^(٢)

(١) المصدر نفسه ص ٣١٩، وإنا لنشتمز من بعض هؤلاء المغممين الذين يعيشون مثلا في بلدان الغرب متذرعين بالتقية لكتان الحق حين يُسألون المسائل الحرجة في موضوع أبي بكر أو عمر أو عائشة، والحال أن التقية هناك منعدمة تماما! بل إنها منعدمة حتى في معظم بلدان الشرق ولذا نحن لم نجوز لأنفسنا العمل بها حيننا كنا هناك، وقد ثبت أنها منعدمة حتى مع تعرضنا للسجن والاعتقال إذ لم يكن هذا القدر من الضرر من المعتد به، فضلا عما يَبْنَاهُ من أن الصدع بالحق أولى وهو يُسْقَط وجوب التقية. ربما يفضل هؤلاء الجبناء أن نراهم يوم القيامة ملجَمين بلجام من النار! أبعدنا الله عنهم ولا جعلنا الله منهم أبدا فإنهم هم الذين سيواجهون الإمام المنتظر (صلوات الله عليه) حين يطلب منهم النصرة بقولهم: «لا نفعل! إنما نتقي!»

(٢) تفسير الإمام العسكري عليه السلام ص ٣١٣ ووسائل الشيعة للحرّ العاملي ج ١٦ ص ٢١٧.

وكيف كان فإن للتقية مواضعها وشروطها، ولا يجوز بحال أن تؤخذ مسوِّغاً لارتكاب المحرمات أو العمل خلافاً للتكاليف، أو أن تغدو سبباً لهدم الدين والتشيع والتنازل عن ثوابته العقيدية، أو هتك حرمة أهل بيت النبوة (عليهم السلام) أو حتى إذلال المؤمن نفسه، فقد ورد في الحديث عن الصادق صلوات الله عليه: «إن الله عز وجل فوّض إلى المؤمن أموره كلها، ولم يفوّض إليه أن يذلّ نفسه. ألم تسمع لقول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ فالمؤمن ينبغي أن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً، يُعزِّه الله بالإيمان والإسلام»^(١).

هذا وإن على المؤمن أن يسعى لعدم الاضطرار للتقية، وأن يدعو الله تعالى كي يجنبه مثل هذا الاضطرار، ولذا فإننا نقرأ في الدعاء الصادر عن الناحية المقدسة: «واجعلنا يا رب.. ممن لا حاجة له إلى التقية من خلقك»^(٢).

■ إياكم والالتباس في فهم أحاديث التقية

ثم إن هاهنا تنبيهها:

يحلّو لكثير من الجبناء والانهزاميين استعارة بعض النصوص الشرعية والأحاديث الشريفة التي تؤكد على التزام التقية، وأنه ليس منهم (عليهم السلام) من لم يجعلها شعاره ودثاره، وأنه لا خير فيمن لا تقية له، وأن أكرمكم عند الله أشدكم تقية، وأن تسعة أعشار الدين في التقية، وأن الحسنة التقية والسيئة الإذاعة.. وغيرها من نصوص وأحاديث مستفيضة في الحث على هذا الالتزام. وهؤلاء إنما يستعيرون هذه النصوص لتخدير عقول

(١) الكافي ج ٥ ص ٦٣ عن سماعه، والآية من سورة المنافقون: ٩

(٢) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص ٤١٥ والبلد الأمين للكفعمي العاملي ج ١ ص ٣٠٨ في الدعاء لصاحب الأمر (صلوات الله عليه) في زمان الغيبة، وتجده في مفاتيح الجنان وسائر كتب الأدعية.

بسطاء الناس، وقصدهم من وراء ذلك هو الإيحاء بأن تلك الأحاديث توجب العمل بالتقية في كل عصر ومصر، وفي كل حين وآن، حتى تكون هي الأصل لا الاستثناء.

وقد تبين لك أن هذه النصوص إنما قد صدرت في ظروفها الموضوعية في تلك الأزمنة، حيث الأجواء الخائفة التي تكون التقية مما لا بد منه للتعايش معها والحفاظ على الدين وأهله. وحيث قد ارتفعت بحمد الله تعالى تلك الأجواء الخائفة فإنه لا تقية، كما أكدته النصوص الأخرى التي مرّت عليك.

إلا أن الجبناء يحلو لهم غسل أدمغة الناس بعرض وجه واحد دون الوجه الآخر، فهم ينتقون من النصوص ما يشاؤون ويحجبون منها ما يشاؤون، ثم يؤسسون على هذا الذي انتقوه القواعد والأحكام خلافاً للأصول العلمية، فإننا لو أخذنا كل حديث ورتبنا على ظاهره أحكاماً دون النظر في دواعي صدور لقلبنا دين الله رأساً على عقب!

وكمثال على ذلك؛ فقد ورد في الحديث الذي مرّ عليك عن الصادق صلوات الله عليه: «إياكم وذكر علي وفاطمة فإن الناس ليس شيء أبغض إليهم من ذكر علي وفاطمة عليهما السلام».^(١)

أفهل يصح أن نأخذ هذا الحديث على ظاهره وإطلاقه فنحرّم على الناس ذكر علي وفاطمة (عليهما السلام) ونمنع كل مجلس يُعقد وكل حُطبة تُلقى وكل كتاب يُكتب وكل جُهد يُبذل لبيان فضائل المرتضى والزهراء صلوات الله عليهما وآلهما؟! قطعاً لا.. فإن هذا الحديث الشريف قد صدر في أجواء الضغوط الخائفة التي تطلّبت أن يأمر الأئمة شيعتهم بالتزام التقية المشددة حتى في مجرد ذكر علي وفاطمة عليهما السلام، أما الآن حيث ارتفع

(١) الكافي ج ٨ ص ١٥٩ عن عنبسة، وعنه الوسائل في أبواب التقية.

ذلك المحذور بحمد الله تعالى فلا نهي عن ذكرهما (صلوات الله عليهما) فيعود الحكم للاستحباب.

فكذلك هو الأمر في روايات التقية والنهي عن الإذاعة أو ذكر مخازي الظالمين، إنها مقيّدة بظروف تلك الأزمنة العصيبة، فلا يصح ترتيب حكم دوام وجوبها عليها كما يفعله هؤلاء الذين في قلوبهم مرض الانهزامية والخوف!

فإن قيل: إن التقية لا ترتفع بل تشتد مع مرور الزمن لما رواه الكليني عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «كلما تقارب هذا الأمر كان أشدَّ للتقية»^(١).

قلنا في الجواب: المقصود في الرواية هو اشتداد الحاجة إلى التقية بلحاظ المجموع لا بلحاظ زمن متأخر عن زمن متقدم بالضرورة، ففي أزمان - كزماننا هذا - لا يكون للتقية مسوغ شرعي ولا حاجة على نحو الإجمال، وقد يأتي زمان بعده تتحقق فيه المسوغات، وقد يأتي بعده زمان آخر تنتفي فيه، وهكذا، إلا أنه بلحاظ المجموع تكون ظروف الأزمان الأخيرة القريبة من زمن الظهور المقدس أدعى للتقية، لا أن التقية لا يمكن ارتفاعها مطلقا في كل زمان، فليس هذا من معنى الرواية في شيء. على أنه في زمان التوطئة للظهور المبارك تكون التقية إجمالا منتفية أيضا، ولذا يخرج الخراساني واليمني مجاهرين ومطالبين بالحق، وخروجها علامة انتفاء التقية إذ لو كانت غير منتفية لما خرجا إذ يكون الخروج حراما، ولاستحقا الذم في الروايات بدل المدح والتأييد والنعى بالهدى، وبضميمة هذا تعرف أن المقصود من الرواية ليس اشتداد التقية على نحو الطردية الاستمرارية، بل المنقطعة.

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٢٠، والمقصود من (هذا الأمر) هو ظهور المولى صاحب العصر صلوات الله عليه.

ثم إن هذه الرواية إنما هي في الغيبات لا في الأحكام، فلا تفيد حكماً، ونحن ملزمون بالروايات التي تذكر حكم التقية ومقيّدون بالشرائط المذكورة فيها، فإن تحققت وجبت علينا التقية وإن لم نر لها تحقّقاً حرمت علينا، وهذا هو تكليفنا فحسب.

ومحاولة منع ترك التقية استناداً إلى هذه الرواية أشبه بمحاولة منع إقامة العدل استناداً إلى رواية أن الظهور لن يقع إلا بعد امتلاء الأرض ظلماً وجوراً! وبطلانها لا يحتاج إلى كلام.

فإن قيل: قد روى الصدوق عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «لا دين لمن لا ورع له، ولا إيمان لمن لا تقية له، إن أكرمكم عند الله أعلمكم بالتقية». فقيل له: يابن رسول الله إلى متى؟ قال: إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم خروج قائمنا أهل البيت، فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا فليس منا^(١) ومعناه وجوب التقية مطلقاً قبل خروج القائم عليه السلام.

قلنا: إن دعوى وجوب التقية مطلقاً ليس إلى إثباتها سبيل مع ما بان لك من حرمتها في بعض الموارد وكراهتها أو إباحتها في أخرى، فيحمل هذا الخبر وأمثاله على معنى أن تارك التقية الواجبة قبل خروج القائم (صلوات الله عليه) ليس منهم، لا تارك التقية المستحبة أو المباحة أو المكروهة. وبعبارة أخرى؛ إن موضوع التقية إذا تحقق وبلغت فيه المفسدة حد وجوب الدفع فإن التقية حينئذ تكون واجبة ويكون تركها حراماً، فهذا الذي يتعمّد تركها في هذه الصورة يكون مرتكباً للفعل المحرّم، ولا شك أنه بذلك ليس منهم عليهم السلام.

والظاهر أن الخبر في مقام التحذير من خصوص الخروج قبل ظهور صاحب الأمر (عليه السلام) فإن من وقف على أحاديثهم (عليهم السلام) وتذوّق معانيها يلحظ اقتران ذكرهم للتقية بأمر الخروج على نحو المقابلة، حيث كان الدخلاء يجنّدون الجنود ويكتبون الكتابات

(١) كمال الدين وتمام النعمة ص ٣٧١

بشعار الدعوة إلى الرضا من آل محمد، ولم يكن هدفهم إسقاط الحكومات القائمة لتسليم السلطة إلى أصحابها الشرعيين من أهل البيت (عليهم السلام) وإنما كان هدفهم إسقاطها لينالوها بأنفسهم، كما فعل بنو العباس في بني أمية، وكان كثير من الشيعة ينخدعون بتلك الشعارات ويظنون أن أصحابها ممن نصبهم الأئمة (عليهم السلام) لأداء تلك المهمات، وكان بعض أولئك الدخلاء يدعون المهديّة أيضاً كمحمد بن عبد الله المحض، وإزاء ذلك كان الأئمة (عليهم السلام) يحذرون شيعتهم من هؤلاء مفنّدين مزاعمهم ومبطلين دعاواهم بالتأكيد على أن صاحب الأمر لم يظهر بعد وأن التقية في شأن الخروج على هذه الحكومات القائمة ستبقى إلى حين ظهوره وهؤلاء الدخلاء إنما يخرجون خلافاً لأمرهم. وعلى هذا فيكون معنى هذا الخبر وأمثاله أن من ترك التقية في خصوص القيام بجهد عسكري ضد السلطات القائمة وانضوى تحت لواء من خرج بغير أمرهم (عليهم السلام) فليس منهم. أما لو كان خارجاً واثراً بإذن منهم فليست التقية واجبة عليه ولا تحذير منه ولا ذم له، وإلى هذا يتوجّه معنى ما رواه ابن ادريس عن الصادق عليه السلام: «لا أزال أنا وشيعتي بخير ما خرج الخارجي من آل محمد صلى الله عليه وآله، ولوددت أن الخارجي من آل محمد (صلى الله عليه وآله) خرج وعليّ نفقة عياله»^(١) وبهذا يمكن مثلاً تصويب ثورة زيد بن علي بن الحسين (عليهما السلام) عند من صوّب. كما يمكن تصويب تصدي الفقهاء العدول الجامعين للشرائط في زمن الغيبة لتأسيس الدولة باعتبار مأذونيتهم من قبل ولي العصر (أرواحنا فداه) على القول بعموم وظيفتهم لهذا المورد. فتأمل.

وعلى أية حال فإنه لا شك عند أهل العلم والفضل والتحقيق أن معنى قولهم عليهم السلام: «لا دين لمن لا تقية له.. لا إيمان لمن لا تقية له» هو أنه لا دين ولا إيمان لمن لا يعتقد

(١) الوسائل ج ١١ ص ٣٩ عن السرائر لابن ادريس.

بوجود حكم التقية شرعا، لا أنه لا دين ولا إيمان لمن لم يعمل بالتقية حتى مع عدم تحقق موضوعها الضروري. وبهذا يتأكد أن قوله عليه السلام: «فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا فليس منا» معناه أن من ترك التقية الواجبة بدعوى ارتفاع حكمها قبل خروج القائم فليس منهم، وذلك بضميمة صدر الرواية حيث قوله عليه السلام: «ولا إيمان لمن لا تقية له»، وبضميمة التقييد بما قبل الخروج في قوله عليه السلام: «قبل خروج قائمنا»، لأن حكم التقية يرتفع عند خروج القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف ونحن معه.

فالخبر إذن ناظر إلى الحكم لا الموضوع، ولا شك في بقاء الحكم متى ما تحقق موضوعه. على أننا ذكرنا أن حمل الخبر على خصوص التحذير من الخروج والثورة بغير إذن منهم (عليهم السلام) لا يخلو من قوة. وكيف كان؛ فإن دعوى أن التقية واجبة مطلقاً في كل الموارد وعلى سبيل الدوام إلى ما قبل قيام قائم آل محمد (صلوات الله عليهم) هي دعوى باطلة لا يشفع لها خبر ولا يساندها استدلال.

زبدة المخض:

قد عرفت مما سبق أن التقية رخصة لارتكاب عمل محرّم اتقاءً لوقوع الضرر العاجل أو الآجل، وأنها لا تكون واجبة دائماً بل يختلف حكمها باختلاف الموضوع، وأن الذي يحدد ماهية حكم التقية في هذا الموضوع أو ذاك هو مقارنة ما يترتب على فعلها بما يترتب على تركها من المصالح والمفاسد، فإذا كانت الكفة تميل لجهة التقية فيها، وإلا فلا.

وغير خفي - طبقاً لدلالة الروايات - أن الحكمة الأساسية من تشريع التقية هي حفظ حياة الإمام المعصوم (عليه السلام) وحفظ جماعة المؤمنين من الفناء كي لا يندرس دين الله سبحانه وتعالى.

وعلى ما تقدّم؛ فإنّنا لا نرى مانعا شرعيا من جهة التقية لإظهار هذا المنهج الرافضي والعمل بمقتضاه، إذ هي بالنسبة إليه سالبة بانتفاء الموضوع، حيث لا نحتمل ضررا معتدا به يتوجّه إلينا، ولا إضرارا معتدا به يتوجه إلى غيرنا، سيما مع صيرورة العالم بفعل آليات التواصل وتقنيات الاتصال قرية حرة واحدة ذات فضاء واسع تضع فيه أخطر الآراء وأكثرها حساسية واستفزازا، فلا يستجلب طرحها من ردود الفعل سوى بعض الفرع هنا وبعض الجلبة هناك، وما بينهما من بيانات وتصريحات هجومية، وعلى أسوأ التقادير مظاهرة صارخة تنتهي بحرق أعلام وصور وتمزيق دُمى، ثم تطوي ذلك كله حركة التفاعل البشري اليومي بما فيها من مستجدات سريعة تجعل ما وقع بالأمس غابرا وكأنه قد وقع قبل قرن. هذا هو قانون عالم اليوم، ومعه يكون من المبالغة دعوى أن هذا المنهج يؤدي إلى كارثة! ولقد راهن كُثُرٌ على تحقق هذا لإسقاطه فخابوا حين لم يقع شيء ذو بال.

وخذ مثالا على ذلك حين نشرنا أخطر كتب القرن، ألا وهو (الفاحشة الوجه الآخر لعائشة) مقتربا بأجواء محمومة بفعل احتفالنا الأول بذكرى هلاكها في السابع عشر من شهر رمضان لسنة ١٤٣١، فلقد كان من الواضح لنا - رغم الفرع الذي انتاب الجبناء منا - أن الموضوع الضروري منتفٍ من جهات عدّة، منها أن المعلومة الإجمالية لهذا الكتاب إنما هي اليوم عند جمهور المخالفين من قبيل تحصيل الحاصل، فإن جلّهم قاطع بأن «الشيعة يطعنون في شرف عائشة» وهذا ما يتردد بينهم كواحدة من المواد الرئيسية للشحن العدائي المتكرر، فهذا الكتاب لن يفاجئ في عنوانه ومعلوماته الإجمالية أحدا منهم، بل سيبدّد ما علق في أذهانهم من شبهات تجاه هذه المسألة، ليعرفوا الفرق بين ما يتهموننا به وبين ما نقول به، وهو فرق مهم قد بيّناه في الكتاب. وبهذا؛ ليس الكتاب بمجرد كفيلا لإثارتهم ودفعهم إلى العنف والإجرام، إذ هو ليس إلا تفصيلا لمعلومة إجمالية راسخة في أذهانهم عن اعتقاد

الشيعة في الحميراء، وأقصى ما يمكن أن يدفعهم الكتاب إليه هو الصباح أو النباح، وهذا ما حصل بلا أي تجاوز عنه، كما توقعنا تماماً.

ومن جهات انتفاء الضرر أن الكتاب هو في واقع الحال قد نزع الحساسية عن مناقشة هذه المسألة وغيرها من المسائل الخلافية، فإنها لو بقيت محاطة بالسرية والكتمان دون تقديم الدليل والبرهان؛ فإنها تجعل المخالف أكثر عداءً وعنفاً، لاشتباه الأمر عليه، أما مع اتضاحه له فإنه قد يهديه الله فيصحّ موقفه واعتقاده، ولقد تحقق هذا كثيراً بحمد الله تعالى إذ تشييع مَنْ تشييع بسبب هذا الكتاب ومنهم بعض الأزهرين. وحتى إن لم يهتد ويصحّ فإن مجرد عرض الدليل والبرهان ومناقشة الأمر بصراحة ينقل الصراع إلى حلبة المناقشة العلمية، ومع توالي النقاش يُعتاد عليه، ومع الاعتياد عليه تُنزع الحساسية عنه، ومع انتزاع الحساسية من هذه المسألة الأخطر (عرض عائشة) تُنزع الحساسية عمّا دونها من مسائل أهون وأقل خطراً، فلا تكون هذه المسائل موجبة لإثارة نزاعات العنف الفعلي، فينتفي الضرر.

ومن جهات انتفاء الضرر أن واقع الحرب المؤسفة القائمة اليوم بين الشيعة ومخالفهم - سيما في العراق وباكستان حيث تُراق الدماء - أثبت أن الإقدام والإحجام في ميدان الطرح العقدي والفكري كلاهما سيّان، فإذا أحجم الشيعة وسكتوا عن التعرض لأولياء القوم ما كان ذلك بمانع هؤلاء عن الاعتداء والقتل، بل إن الإحجام والسكوت يجعلهم يتبادون أكثر في الإجرام، وكذلك إذا أقدم الشيعة فإن ذلك لا يمنع القوم عن الاعتداء والقتل، إلا أنه في كثير من الأحيان يفرض عليهم مراجعة حساباتهم لشعورهم باستعداد الشيعة للتحدي والمجابهة بالمثل فيكون ذلك ردعاً. وعلى أية حال فإن الحرب الحالية يعلم الجميع بأنها لم تبدأ «لأن الشيعة يطعنون في أبي بكر وعمر» وإنما بسبب معادلات سياسية إقليمية معقدة أفرزتها ثورة إيران وسقوط الشاه، فالحرب العراقية الإيرانية، فالحرب

الأهلية اللبنانية، فغزو الكويت، فالتدخل الأميركي، فالانتفاضة الشعبانية، فالانتفاضة البحرانية، فهيمنة حزب الله في لبنان بعد الانسحاب الصهيوني، فالبروز الشيعي في سورية، فسقوط طالبان في أفغانستان، فتمرد الحوثيين في اليمن، فسقوط البعث في العراق، فالتمدد الشيعي في بلدان المغرب العربي.. تلك هي المحطات الفارقة للتحويلات الهائلة التي جرت في المنطقة. والهدف من الحرب على الشيعة واضح، وهو قطع الطريق أمام وصولهم للحكم أو الهيمنة في دول وأقاليم هم فيها أكثرية وتحت أرجلهم أكبر وأهم حقول النفط في العالم، فإن ذلك لو تحقق لأصبح الشيعة سادة العالم ولعاشوا في قمة العزة والرفاهية وحُرم مخالفوهم من كل ما بنوه على أشلاء ودماء الشيعة طوال قرون.

وفي خضم هذا المعترك، يكون الشيعي مستهدفًا ومشروعًا للتصفية في كل الأحوال، نطق أم سكت، أقدم أم أحجم، ولا أدلّ على ذلك مما جرى ويجري في العراق منذ سقوط النظام البكري البعثي الصدامي حتى الآن، إذ إن من المعروف والمشهود به أن شيعة العراق بالذات كانوا أبعد الشعوب الشيعية عن إثارة مخالفيهم، وأكثرهم مراعاة لهم وتنازلاً لهم، وبعد سقوط النظام التزموا بضبط النفس والأعصاب إلى حد لم يسبقهم أحد فيه في هذه العصور المتأخرة، فمع كل اعتداء مهول ومنذ الأشهر الأولى للسقوط تحاشى الشيعة في العراق الشروع في الانتقام أو اللجوء إلى منطق القوة، وحافظوا على هدوئهم حتى في الميدان العقدي، وتنازلوا لغيرهم في الميدان السياسي أملاً في استيعاب الكل وبناء وطن مشترك، وقدّموا كثيراً من التضحيات التي وقف لها منصفو العالم إجلالاً، ومع كل ذلك، ومع خسارتهم لعباتهم المقدسة، ولما يربو على نصف مليون شهيد حتى الآن.. مع كل ذلك لم يؤثر ذلك في مخالفيهم ليتوقفوا عن إبادةهم وتصفيتهم، ذلك لأن الهدف استراتيجي عسكري ديموغرافي سياسي على مستوى المنطقة، لا يتوقف - لا سلباً ولا إيجاباً - على كتاب شيعي هنا أو محاضرة شيعية هناك! وبذا فإن هذا الكتاب صدر أم لم يصدر فإن مشروع إبادة الشيعة

سارٍ يمضي فيه المخالفون على قدم وساق. فالضرر الذي يتمخض عن صدور هذا الكتاب بمجردِه منتفٍ في الحقيقة، ويكون حالنا كأصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام)^(١) من بعده الذين وجدوا أنهم إن صدعوا بحق أمير المؤمنين قُطعت ألسنتهم وقُتلوا وصُلبوا، وإن لم يصدعوا وأخذوا بالتقية فكَذلك أيضاً، فاختاروا الأول ومدّوا رقابهم للسيف.

وحتى لو افترضنا أن ثمة ضرراً، فإن حمل وجوب التقية عليه هاهنا لا يتم، لما عرفت من أنه لو كانت المصالح المترتبة على تركها أعظم وأولى وجب تركها أو استحب، وكذا لو كانت المفاسد المترتبة على فعلها أشد. ونحن واثقون وعلى يقين أمام الله تعالى أن المصلحة إنما هي في طرح هذا المنهج الرافضي العظيم، والمفسدة إنما هي في عدم طرحه، فإننا وجدنا أن الأمة قد انخدعت خدعة كبرى بعائشة وأمثالها، وبسبب صمتنا عن بيان الحقيقة فقد سَرَتْ هذه الخدعة في أجواء المؤمنين بآل محمد (عليهم السلام) حتى انطلت على بعضهم! فتراه يتردد في البراءة من عائشة أو ذكر مساوئها باعتبارها كانت زوجة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم! وهذه لعمرى طامة كبرى.

وعلى أية حال فإننا نكرر وصيتنا من أن هذه فرصة تاريخية قد لا تتكرر مستقبلاً، فإننا لا نعلم الغيب ولا ندرى ماذا يجبى لنا القدر، وقبل أن تتغير ظروف العالم فلنستثمر أجواء الحرية المتاحة اليوم ولنبت ما عندنا من علوم ومعارف وحقائق ولنجهز بالحق ولا نخاف في الله لومة لائم لنثبت كل ذلك للأجيال، حتى يبقى هذا تراثنا سالكا بهم طريق الرشاد ومبعدا إياهم عن طريق الفساد، فإن كلمة الحق تبقى ولا تَفنى.

ونحن اليوم إنما استقامت عقيدتنا وعرفنا ولاية الطيبين من آل أحمد (صلوات الله عليهم) وأنكرنا ولاية الخبيثين من آل أبي بكر وعمر وعثمان وبنى أمية وبنى العباس

(١) ميثم ورشيد وحجر وغيرهم.

وأضرابهم (لعنات الله عليهم).. إنما استقامت عقيدتنا وعرفنا ذلك بتضحيات علمائنا الأبرار ودمائهم التي بذلوها حتى أوصلوا لنا هذا التراث مستغلين كل فرصة زمنية متاحة يمكن استغلالها لأداء هذه المهمة العظيمة.

فلنحتذي إذن بحذوهم، ولا نذرعن بالتقية فنقصّر في أداء وظيفتنا تجاه الأجيال البشرية القادمة، فإن علمائنا المتقدمين لو كانوا تذرّعوا بالتقية لما كنا اليوم نعرف حقاً لآل محمد (عليهم السلام) ولربما كنا ككثير من أسلافنا.. نواصب بكرين عمريين والعياذ بالله!^(١)

وهكذا نحن؛ إن تذرّعنا بالتقية وكنمنا هذه الحقائق فقد نكون مسؤولين عن انحراف الأجيال اللاحقة، فأتى لها أن تعرف الحق ونحن قد كنمناه باسم التقية؟! وأتى للشباب الشيعي أن يعرف المبررات الشرعية لموقفنا ممن يسمونهم صحابة ونحن لا نبينها؟!^(٢)

■ قصة وعبرة عن عاقبة التساهل في التقية فراراً من المصادمة

إن الذين يستمرئون اليوم العمل بالتقية فراراً من الصدمات والمشاكل وإشارةً للدعة والراحة سيندمون غداً! فعندما يحين أجلهم وتكشف لهم أحوالهم سيتحسرون على تفريطهم في أداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تلك الوظيفة التي هي من أشرف

(١) صاحب هذا الكتاب كان أجداده الأوائل من البكرين العمريين! والحمد لله الذي هدانا.

(٢) نقل لنا ساحة الشيخ صالح المجاهد أنه فوجئ خلال حلقة التدرسية الحوزوية في كربلاء المقدسة بعد سقوط نظام البعث أن بعضاً من تلامذته وقف محتجاً على لعنه عمر بن الخطاب حين تعرّض لذكره أثناء الدرس! وكان الأكثر دهشة من ذلك أنه عندما تحاور معهم تبين أنه ليست في أذهانهم أية فكرة عن جرائم عمر بحق الصديقة الزهراء (صلوات الله عليها) فكانوا يقولون: «إنها المرة الأولى التي نسمع فيها أن عمر بن الخطاب هجم على دار الزهراء وأسقط جنينها وقتلها!» فمن يتحمل مسؤولية هذا الحجب والإخفاء وما يترتب عليه من آثار الانحراف العقدي؟! من يتحمل مسؤوليته غير الجبناء من معتمري العمام؟!

الوظائف الدينية وأعظمها وأهمها سيندمون كثيراً على إسقاطهم إياها بحجة التقية خوفاً وجُبناً ليس إلا!

وليت هؤلاء يتعظون من قصة المحدث الجليل الشيخ عباس القمي (قدس سره) صاحب الكتاب الشهير (مفاتيح الجنان)، وهي قصة لها ارتباط وثيق بموضوعنا، وقبل أن نذكر تفصيلها؛ نلفت إلى أن الشيخ القمي كان بحق من أولياء الله تعالى، وقد بلغ من التقوى والورع والإخلاص والولاء لأهل بيت النبوة (عليهم السلام) مقاما غبطه عليه أهل عصره، وقد أجرى الله تعالى على يده الكرامات وحباه بأنواع المكرمات، ويكفيه فخراً أن كتابه (مفاتيح الجنان) أصبح قريناً لكتاب الله تعالى، فلا تكاد تجد بيتاً من البيوت إلا وفيه نسخة من المصحف الشريف وإلى جوارها نسخة من المفاتيح، ولا تكاد تجد أحداً لا يعرف من هو الشيخ عباس القمي، فاسمه وذكره أشهر عند الناس من معظم العلماء السابقين واللاحقين! ورغم أن فطاحل العلماء وأكابر الأتقياء كانوا يتمنون لو يصلوا إلى مثل ما وصل إليه الشيخ من التمسك والالتزام بالدين؛ إلا أنه رُئي في أواخر أيام حياته حزينا كئيبياً ينهمر الدمع من عينيه، وهو يتأسف على ما صنع ويستغفر الله تعالى منه مراراً وتكراراً! فما هذا الذي صنعه الشيخ وقد ندم عليه كل هذا الندم؟

أحد علماء طهران وهو المرحوم الحاج أحمد الروحاني (قدس سره) كان يعرف السرّ، وقد باح به في ما بعد، فقال: «ذهبت إلى عيادة المرحوم الشيخ عباس القمي (رضوان الله تعالى عليه) في مرضه الذي توفي فيه، فسألته: لمَ كل هذا الحزن الظاهر عليك يا شيخنا؟ ومن أي شيء تخشى وأنت تُقبل على ربِّ كريمٍ وشفيعٍ مُطاعٍ وبين يديك كل هذا الذي قدّمته وأجهدت نفسك فيه من الحسنات والأعمال الصالحة؟

فقال: إني نادم أشد الندم على شيء صنعته في حياتي ليتني لم أصنعه، وحزني هو لهذا الشيء، ففي إحدى السنوات تشرفت بالحج إلى بيت الله تعالى في مكة المكرمة، فأردت انتهاز الفرصة لأخذ إجازة روية من بعض علماء المخالفين عن طرقهم، فذهبت لأحدهم وطلبت منه ذلك، فلما عرف أنني من علماء الشيعة قال لي: إنكم تلعنون وتسبّون أم المؤمنين عائشة! فرأيت أن الإقرار بذلك خلاف الصلاح فأنكرته تقيّة، إلا أنني اليوم نادم على ما صنعت، فليتني لم أعمل بالتقية ولم أنكر بل أقررت وجهرت بالحق، وإني أفكر الآن بماذا أجيب ربي عما فعلتُ عندما أقف بين يديه للحساب!^(١)

أجل.. لا يعرّضنَّ أحدٌ نفسه إلى مثل هذا الموقف الذي ندم عليه الشيخ عباس القمي (قدس الله نفسه) قبل أيام من رحيله عن الدنيا، وليكن الجميع كأمر المؤمنين (عليه السلام) في إخماد الباطل، قاذفا بالنفس في لهوات محاربتة، فلا ينكفى حتى يطأ سماكها بأخضه، ويخمد حرّ لهبها بحدّه.^(٢)

■ أمير المؤمنين عليه السلام جاهر بفضح عائشة!

هذا أمير المؤمنين وأسد الله الغالب علي بن أبي طالب (صلوات الله وسلامه عليهما) جاهر بالحق وذكر فضائح ومخازي عائشة لإخماد باطلها في مجلس ممتلئ بأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفيهم من أهل بدر نحو سبعين رجلا، فقال له عمار بن ياسر رضوان

(١) القصة شهيرة يتناقلها بعض الخطباء في إيران على المنابر، وتجدر إشارة إليها في مقدمة كتاب (منتهى الآمال) تحت عنوان: لمحة عن حياة المؤلف، الطبعة الثانية لمؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة.

(٢) هكذا وصفت الزهراء (عليها السلام) أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبتها الاحتجاجية على أبي بكر لعنه الله.

الله عليه: «يا أمير المؤمنين كُفَّ عنها فإنها أمك! فترك ذكرها وأخذ في شيء آخر، ثم عاد إلى ذكرها فقال أشدَّ مما قال أولاً! فقال عمار: يا أمير المؤمنين كُفَّ عنها فإنها أمك! فأعرض عن ذكرها ثم عاد الثالثة فقال أشدَّ مما قال! فقال عمار: يا أمير المؤمنين كُفَّ عنها فإنها أمك! فقال عليه السلام: كلا! إني مع الله على من خالفه! وإن أمكم ابتلاكُم الله بها ليعلم أَمَعُهُ تكونون أم معها؟»^(١)

ولنا أن نتخيّل كيف كان وَقَعُ هذا الحديث من أمير المؤمنين (عليه السلام) على جمهور الناس آنذاك، وكيف استقبلوا حديثه هذا بامتعاض وهم الذين أُشربت قلوبهم هوى عائشة، ومع هذا لم يخشَهم أمير المؤمنين (عليه السلام) ولم يُقم لهم أدنى اعتبار، لأن الله تعالى يحذّرنا بقوله: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.^(٢)

والمؤمن الموالي اليوم يقتدي بسيرة حيدر الكرار (صلوات الله عليه) فقد وضع لنا هذه القاعدة التي تحضّنا على المضي بشجاعة في نهج إخماد الباطل والتضحية في سبيل ذلك بكل غالٍ ونفيس وتحمل الأضرار والمشاق والمشاكل التي تأتينا لأجله.. فليكن إذن جواب كل فردٍ منّا على كل من يعترض ويطالبنا باسم التقية بالتوقف والنكوص:

كلا! إني مع الله على من خالفه!

(١) كتاب سليم بن قيس الهلالي رضوان الله تعالى عليه، الحديث السابع والستون ص ٩١٩، والأظهر أن عمارا (عليه الرحمة) لم يكن معترضا على إمامه وإنما أراد أن يحاكي قول القوم حتى يكون ذلك بمثابة المقتضي لردّ أمير المؤمنين (عليه السلام) واستمراره في كلامه، وحالهما كحال موسى وهارون (عليهما السلام) فإن كثيرا من المواقف يتطلب إيصال المعلومة فيها تصوير الأمر أمام الناس وكأنه اعتراض أو نقض أو رد.
(٢) الأحزاب: ٣٨، والآية خطاب للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) لكنه من قبيل: إياك أعني واسمعي يا جارة، فنحن المقصودون به لا هو (صلى الله عليه وآله) فإنه معصوم عصمة مطلقة.

التوطئة الثامنة

■ المواجهات والمواقف «الطائفية» المستحسنة!

كل مَنْ يطلع على تاريخنا الشيعي سيرى بوناً شاسعاً ما بين سيرة الأوائل وسيرة الأواخر، فرغم أن ظروف الأوائل كانت أعسر وأحرج وأشد وطأة عليهم إلا أنهم ما وهنوا في ابتغاء القوم، فكانوا يديمون الزخم الرافضي بالقدح في رموز القوم الظالمين، وتقويض أسس مذهبهم الباطلة، وتسفيه عقائدهم المنحرفة، إذ يرون ذلك واجباً شرعياً وأخلاقياً عليهم، عملاً بقول أئمتهم عليهم السلام: «خاصموهم! ويبنوا للناس الهدى الذي أنتم عليه، ويبنوا لهم ضلالهم الذي هم عليه».^(١)

ولو أن الباحث استقرأ تاريخ الشخصيات الشيعية البارزة؛ ممن تصدّى للكلام والحجاج والدعوة من القدماء، لوجد أنهم كانوا يتعاملون مع أهل الخلاف بنديّة لا يتحرّجون فيها من التصريح بتوافقهم خلفاً عن سلف على رفض أبي بكر وعمر وعثمان والطعن عليهم.

خذ مثلاً ما رواه السيد المرتضى عن شيخه المفيد (رحمهما الله) مما جرى بين كبير متكلمي الشيعة في عصره علي ابن ميثم (رضوان الله عليه)^(٢) وبين شيخ البصريين في الاعتزال

(١) تصحيح الاعتقادات للمفيد ص ٧١

(٢) هو من أصحاب الرضا (عليه السلام) ومن تلاميذ هشام بن الحكم، وصفه النجاشي بأنه: «من وجوه =

أبي الهذيل العلاف. قال المرتضى: «وأخبرني الشيخ أدام الله عزه قال: سأل أبو الهذيل العلاف أبا الحسن علي ابن ميثم رحمه الله عند علي بن رباح فقال له: ما الدليل على أن عليا كان أولى بالإمامة من أبي بكر؟ فقال له: الدليل على ذلك إجماع أهل القبلة على أن عليا (عليه السلام) كان عند وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) مؤمناً عالماً كافياً، ولم يجمعوا بذلك على أبي بكر، فقال له أبو الهذيل: ومن لم يجمع عليه عافاك الله؟ قال له أبو الحسن: أنا وأسلافي من قبل وأصحابي الآن. فقال له أبو الهذيل: فأنت وأصحابك ضلال تائهون! قال له أبو الحسن: ليس جواب هذا الكلام إلا السباب ثم اللطام»^(١)

وما هو جدير بالملاحظة في هذا أن علي ابن ميثم صرح برفض الإجماع على كون أبي بكر مؤمناً عالماً كافياً، أي أنه منافق جاهل واهن! وأن هذا هو اعتقاد الشيعة خلفاً عن سلف بقوله: «أنا وأسلافي من قبل وأصحابي الآن». ثم لما تسفّه أبو الهذيل ورمى الشيعة بالضلال والتهيه؛ لم يستمسك ابن ميثم من ردعه بتهديده «بالسباب ثم اللطام»! مع أنه كان قد ذاق مرارة السجن والتعذيب قبل هذا في عهد هارون العباسي لعنه الله،^(٢) إلا أن كل ما كابده في السجن لم يكسر شموخه الرافضي، ولم يضعف عزمته في ثلب أعداء الله والتصدي لأتباعهم، ولم يحوِّله عما كان عليه من ندية وحدية في مواجهة دعاة المخالفين ومشائخهم.

وترى المفيد والمرتضى (رفع الله درجاتهما) يُحييان هذه المواجهة بالاستشهاد بها والترحّم على صاحبها وتخليدها ضمن عديدٍ من مثلها مما يُعدّ اليوم في مقاييس أهل البلاهة

= المتكلمين من أصحابنا، وهو من أحفاد ميثم التمار (رضوان الله عليه) صاحب أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) الفصول المختارة للسيد المرتضى ص ٨٦

(٢) راجع رجال الكشي ص ٢٦٢

«مواجهات ومواقف طائفية منبوذة»! إلا أنها لم تكن عند علمائنا الأوائل كذلك؛ بل كانت «محبوبة مطلوبة» جدية بأن تُكتب وتُنشر وتُدرس!

ومنها ما يحمل منتهى الاستفزاز للخصم المخالف، كالذي جرى بين ابن ميثم والعلاف أيضاً إذ أثبت الأول للأخير أن إبليس أعلم من إمامه أبي بكر! يقول المرتضى: «وحدثني الشيخ أبو عبد الله أيده الله قال: سألت أبو الحسن علي ابن ميثم أبا الهذيل العلاف فقال له: أليس تعلم أن إبليس ينهى عن الخير كله ويأمر بالشر كله؟ فقال: نعم. قال: أفيجوز أن يأمر بالشر كله وهو لا يعرفه وينهى عن الخير كله وهو لا يعرفه؟ قال: لا. فقال له أبو الحسن رحمه الله: قد ثبت أن إبليس يعلم الشر كله والخير كله؟ قال أبو الهذيل: أجل. قال: فأخبرني عن إمامك الذي تأتم به بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) هل يعلم الخير كله والشر كله؟ قال: لا. قال له: فإبليس أعلم من إمامك إذن! فانقطع أبو الهذيل».^(١)

ولولا أن هذه المواجهات والمواقف «الطائفية»^(٢) كانت جدية بالإحياء والتناقل والنشر لما وجدنا مثل الشيخ المفيد - الذي سَمَّاهُ الحجة القائم (عليه السلام) بهذا الاسم - يميلها على تلميذه الشريف المرتضى.

ولا غرو أن يكون المفيد (رحمه الله) ممن يعتزّ بهذا التراث الرافضي العظيم ويمليه على تلامذته ليسيروا على هدايته، فإنه كان من أوائل السائرين الذين سَطَّروا أروع المواجهات والتحديات لأقدس مقدسات أهل الضلال حتى انتفخت أوداجهم منه غضباً وامتلات

(١) الفصول المختارة للسيد المرتضى ص ٢٣

(٢) على زعم أهل البلاة!

صدورهم عليه حقداً فهجموا عليه في مسجده، وبعث خليفتهم العباسي بعميد جيوشه لينفيه عن بغداد بعدما أحرقوا دور الشيعة واستشهد منهم من استشهد!^(١)

وكيف لا يحقد عليه هؤلاء وهو كما يصفه خطيبهم البغدادي: «شيخ الرافضة والمتعلم على مذاهبهم، صنف كتباً كثيرة في ضلالتهم والذب عن اعتقاداتهم ومقالاتهم والطعن على السلف الماضين من الصحابة والتابعين وعامة الفقهاء المجتهدين».^(٢)

وكيف لا يهجم عليه هؤلاء وهو الذي كان «يدعي الإجماع على كفر عمر ابن الخطاب»!^(٣) وينفي إيمان أبي بكر وعمر لأنها «لو كانا كذلك لما حال النبي (صلى الله عليه وآله) بينهما وبين الوفاء بشرط الله عليهما من القتل، وفي منعها من ذلك دليل على أنهما بغير الصفة التي يعتقدها فيهما الجاهلون، فقد وضح بما بيّناه أن العريش وبال عليهما ودليل على نقصهما وأنهما بالضد مما توهموه»!^(٤) ويردّ على زعم المخالفين أن أبا بكر وعمر وعثمان من وجوه الأصحاب الذين مدحهم القرآن بقوله للمؤمنين بهم: «تجدوا أئمتكم أصفارا مما ادعيتموه لهم وتعلموا أنهم باستحقاق الدم وسلب الفضل»!^(٥) وأما طلحة والزبير فقد قال فيها أنها «قُتلا وهما مصممان على الحرب مقيمان على الفسق»!^(٦) وأما عائشة فقد أعلن أنها «لم تكن لها برسول الله (صلى الله عليه وآله) عصمة في الدين»! وأن أمير المؤمنين (عليه السلام) «مع اعتقاده في عائشة وعلمه بنفاقها وخلافها لم يطلقها عن الرسول (صلى الله عليه

(١) راجع حوادث سنة ٣٩٨ في البداية والنهاية لابن كثير ج ١١ ص ٣٣٨

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٣ ص ٢٣١

(٣) الفصول المختارة للسيد المرتضى ص ٢٧

(٤) المصدر نفسه ص ٣٤

(٥) الإفصاح للمفيد ص ١٣٩

(٦) الكافّة للمفيد ص ٤٤

وآله).. لأن ما فرط منها في العداوة كان مغنياً في انقطاع عصمتها من رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن إحداث تطبيق لها أو ما يقوم مقام ذلك من الفعل.. وإنما ردها إلى الحجاب بحراسة حكم الله تعالى في تحریمها على الناس وحظر نكاحها بعد النبي (صلى الله عليه وآله) على كل حال، ولم يكن ذلك إعظاماً لحقها ولا إجلالاً لقدرها^(١). وأما حفصة فقد قال أنها «متهمة في ما ترويه من فضل أبيها وصاحبه، ومعروفة بعداوتها لأمر المؤمنين عليه السلام،

(١) المسائل العكبرية للمفيد ص ٧٥، ولاحظ هنا كيف تبدلت عقيدة عموم الشيعة، فالأواخر يزعمون أن أمير المؤمنين (عليه السلام) أرجع عائشة بعد الجمل «معززة مكرّمة» لينبأ على ذلك وجوب احترامها وإجلالها إكراماً لرسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ مهما كان فهي زوجته وعرضه! فيما الأوائل كالشيخ المفيد (عليه الرحمة) كانوا ينفون ذلك بقولهم أن هذا الإرجاع «لم يكن إعظاماً لحقها ولا إجلالاً لقدرها» وأن «ما فرط منها في العداوة كان مغنياً في انقطاع عصمتها من رسول الله صلى الله عليه وآله» فلم تعد له بها أدنى علاقة. وبعد هذا تعال لتضحك على أولئك الذين يتحلون التشيع وهم ينبرون للدفاع عن عائشة والمحاماة عنها! يقولون: إنما ندافع عنها لأنها زوجة النبي! بينما عقيدة الشيعة تقول كما قال المفيد قبل أكثر من ألف سنة أنها لم تعد زوجة النبي (صلى الله عليه وآله) إذ انقطعت عصمتها منه، فما بالكم تحامون عن امرأة أجنبية خبيثة قد قال لها النبي (صلى الله عليه وآله) نفسه: «لقد خُبِثَتْ أَنْتِ»؟! (بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج ٣١ ص ٣١٨)

ومن قبيل هذا التبدل المقيت في عقيدة عموم الشيعة؛ أنك ترى اليوم من يشمئز من القول بكفر عائشة ويستنكر دعوى أنها من أهل النار، كما يجري في الاحتفالات السنوية التي أطلقناها في يوم هلاكها في السابع عشر من شهر رمضان إذ يُرفع شعار: (عائشة في النار). فترى بعض ضعفاء الإيمان من منتحلي التشيع ومنافقيهم يهيجون حينئذ ويصرخون: «ليس هذا من مذهبنا! بينما لو رجعت إلى ما قاله علماؤنا الأعلام منذ قرون لوجدت أنهم كانوا يصرّحون بعكس ما يزعمه هؤلاء ويؤكدون أنه من الدلائل على حقية مذهبنا! ارجع مثلاً إلى ما جاء في (كتاب الأربعين ص ٦١٥) للمولى الأجل العلامة محمد طاهر القمي أستاذ العلامة المجلسي والحر العاملي قدس الله أسرارهم، وفيه: «مما يدل على إمامة أئمتنا الاثني عشر أن عائشة كافرة مستحقة للنار! وهو مستلزم لحقية مذهبنا!»

وتظاهرها ببغضه وسبه والإغراء به، والانحطاط في هوى أختها عائشة بنت أبي بكر في حربه والتألب عليه»^(١)

وبعد هذا لا يكون من المستغرب أن يكون يوم وفاة شيخنا المفيد (عليه الرحمة) يوم الفرح والسرور عند أئمة أهل الخلاف، حتى أن أحدهم وهو أبو القاسم الخفاف جلس يومها يستقبل المهنيين وقال: «ما أبالي أيّ وقتٍ مِتُّ بعد أن شاهدتُ موت ابن المعلّم»^(٢)

■ علمائنا ما كانوا يتحاشون التصريح بأننا اللاعنون!

وغني عن البيان أن هذا الحنق الذي يكنّه كهنة المخالفين للشريعة ولعلمائهم؛ عمدته إصرار هؤلاء على الرفض واللعن، وهي أكثر الأمور إثارة للحساسية لدى أولئك. بيد أن علمائنا الكبار في ما مضى لم يعبأوا بهذا الحنق، ولا حاولوا إزالة سببه بالكف عن إبداء الرفض وإظهار اللعن، بل مضوا عليهما في أقوالهم وأفعالهم، وجعلوهما (هوية) تميزهم عن غيرهم ممن انقاد للباطل، بها يسلّمون ويفخرون، ولم يجعلوهما (تهمة) منها يفرّون ويخجلون، كما هو الحال عند ضعفاء الإيوان والجبنة من الأواخر!

ومما يدلّك على هذا أن عالماً عظيماً كالعلامة المجلسي (رضوان الله تعالى عليه) حين أتى على تعريف (الرافضة الإمامية) في شرحه للكافي الشريف؛ لم يتحاش أن يقول: «والرافضة الإمامية سُمّوا بذلك لرفضهم مذهب أكثر الناس في الإمامة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) ولعن الصحابة»^(٣) فأكد على أن هويتهم قائمة على هذين الأمرين بلا موارد ولا تملّص؛ الرفض واللعن!

(١) الإفصاح للمفيد ص ٢٢٤

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٥ ص ٦٠٤، وابن المعلم هو المفيد رضوان الله تعالى عليه.

(٣) مرآة العقول للعلامة المجلسي ج ٥ ص ١٥٠، أما اليوم فإن كثيراً من الأواخر إذا ما قيل لهم: رافضة.. =

■ لم يسع كبراًؤنا الأقدمون إلى التقارب مع المخالفين قط!

ولو أنك فتشت في تاريخ كبرائنا الأوائل مُدَّ كان الأئمة (عليهم السلام) حاضرين لما عثرت على مورد واحد يبدو منهم فيه السعي للتقارب مع المخالفين، أو العمل على إيجاد مساحة عقدية أو مذهبية أو فكرية مشتركة معهم، فلم تكن مسألة «التقريب بين المذاهب الإسلامية» حاضرة في نطاق أهدافهم مطلقاً! ولا كانوا يهتمون بالتلاقي مع المخالفين إلا في مقام التحدي والمناظرة والخصومة والجدل، رغم ما كان يربط بين بعضهم وبين أولئك من علاقات اجتماعية وثيقة تفرضها الحياة والمعيشة، إلا أنهم ما كانوا يسمحون أبداً بأن تتعدى هذه العلاقات إلى أي نوع من أنواع «التطبيع الديني أو المذهبي» مع الآخر.

لقد كان شيخ الإباضية عبد الله بن يزيد شريكاً تجارياً لهشام بن الحكم (رضوان الله عليه) في حانوت واحد، وبينهما علاقة وثيقة الصلة فرضتها هذه الشراكة حتى اعتبرها ابن

= اعتبروها سبة! فتراهم ينكرون هذه النسبة الشريفة ويجهدون لتبرئة أنفسهم منها مع أن الإمام الباقر (عليه السلام) كان يفخر بالانتساب إليها إذ قال: «وأنا من الرافضة»! (المحاسن للبرقي ج ١ ص ١٥٧). والمتحذلق من الأواخر إن لم ينكر النسبة تراه يلوذ ببيت الشافعي المعروف: «إن كان رفضاً حب آل محمد؛ فليشهد الثقلان أنني رافضي» محاولاً صرف معنى (الرفض) إلى (حب آل محمد عليهم السلام) مع أن هذه هي الموالة والتشيع لا الرفض! وكان الأجدر به أن يأخذ المعنى من أئمة الأطهار (عليهم السلام) وعلماؤه الأبرار (عليهم الرحمة) لا من مثل الشافعي البكري! وأما الالتزام بأن المعنى هو «رفض مذهب أكثر الناس في الإمامة ولعن الصحابة» كما قالها العلامة المجلسي بكل صراحة ووضوح؛ فلا تكاد ترى من شيعة اليوم من يقرّ به سوى من هم من أهل العالم الأول، ممن أبى إلا أن يمضي على سيرة علمائنا الأبرار القدماء، بلا خوف ولا حرج ولا تلعم! وهذه - كما ترى - من الفروقات ما بين سيرة الأوائل وسيرة الأواخر، ففي حين كان الأوائل لا يستنكفون من الاعتراف برفضهم ولعنهم لرموز القوم؛ جاء هؤلاء الأواخر يجرّمون ذلك وينزّهون أنفسهم عنه وكأنه ذنب أو عار! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يزيد «مودة» كما سيأتي. إلا أن هذه العلاقة لم تمنع هشاماً (رحمه الله) من قول الحق في شريكه الإباضي وجرحه والهجوم على مذهبه وإلزامه الكفر على نفسه! يوم اجتمع وإياه في مجلس الوزير يحيى بن خالد البرمكي - وهارون العباسي يسمع - فكان من قول هشام للوزير بعدما أفحم عبد الله بن يزيد: «قد قطعته أيها الوزير ودمرت على مذهبها كلها بأهون سعي.. قد حكم هذا الشيخ وهو عماد أصحابه مختاراً غير مضطّرّ رجلين مختلفين في مذهبهما؛ أحدهما يكفره والآخر يعدّله، فإن كان مصيباً في ذلك فأمر المؤمنين أولى بالصواب، وإن كان مخطئاً كافراً فقد أراحنا من نفسه بشهادته بالكفر عليها!»^(١)

ولعل ما هو أكثر لدعاً من هشام لشريكه الإباضي، ما جرى حين طلب الأخير نكاح ابنة الأول، وهو يظن أن ما بينهما من العشرة والشراسة لن يجعل هشاماً يتردد في القبول، فإذا به يلقي منه رداً لادعاً حين أبى إنكاحه لوصف ابنته بالإيمان لا لعلّة أخرى، ما يعني أن الإباضي كافر حكماً وإلا لجاز تزويجه إياها حتى ولو كان مبتدعاً أو منافقاً لأنها يجري عليها حكم الإسلام. قال له عبد الله بن يزيد: «تعلم ما بيننا من مودة ودوام الشراكة، وقد أحببت أن تنكحني ابنتك فاطمة. فقال هشام: إنها مؤمنة! فأمسك الإباضي ولم يعاوده في شيء».^(٢)

■ العشرة الحسنة مع المخالفين ولكن مع الخصومة الدينية!

هكذا كانت سيرة الأوائل في التعامل مع أهل الخلاف سيرة متوازنة قوامها المخالطة والعشرة الحسنة مع الخصومة الدينية والاستيحاش المذهبي، بمعنى أن الشيعي كان يتعايش مع الآخرين سلمياً ويتشارك معهم اجتماعياً وينفتح عليهم انفتاح الإنسان على أخيه

(١) الفصول المختارة للسيد المرتضى ص ٥١، وقوله: «دمرت على مذهبها» يعني به: هجمت عليها حتى نسفتها.

(٢) ضحى الإسلام لأحمد أمين ج ٣ ص ٢٦٨

الإنسان، إلا أنه في مقام العقيدة كان يتحوّل إلى موقع الخصم للخصم والندّ للندّ، لا ينكل عن بيان الحق وإن اشتمل على ما يستفز المخالف كإظهار البراءة من أئمتهم ولعنهم مثلاً، كما أنه في مقام الشرع ما كان يسمح بالتجاوز على أحكامه بمعاملة المخالف معاملة المؤمن فيقتدي به في صلاته مثلاً، إلا إذا كان في مقام الاضطراب والتقية.^(١)

والحق أن هذه السيرة المتوازنة هي نتاج تربية الأئمة (عليهم السلام) لأصحابهم، فإنهم الذين طبعوهم بهذا الطبع وأكسبوهم هذه السجية، فلئن قالوا لهم: «إنما شيعة علي عليه السلام.. بركة لمن جاوروا وسلم لمن خالطوا»^(٢) فلقد قالوا لهم أيضاً: «لا يستأنسون إلى مَنْ خالفهم»^(٣) كما قالوا لهم: «من أكرم لنا مخالفاً فليس منا ولسنا منه».^(٤) وقالوا: «وأفحم صاحبهم، واكسر عزّته، وفلّ حدّه، ولا تُبق له باقية».^(٥)

(١) راجع كتاب (عمدة المقال في كفر أهل الضلال) للعلامة الشيخ حسن ابن المحقق الكرّكي شيخ الإسلام رضوان الله عليهما، وفيه نسبة ذهاب مشهور علمائنا المتقدمين كالنفيد والمرّضي والطوسي وأبي الصلاح وابن إدريس إلى كفر المخالفين لا موضوعاً فحسب - كما نقوله نحن - بل حكماً أيضاً! وعلى هذا فنحن أقل «تطرفاً» من أولئك إذ نجري على المخالف حكم المسلم! ومهما يكن؛ فلا خلاف في اختصاص المؤمن بأحكام لا يجوز معاملة المخالف بها لأنه كافر موضوعاً أو في العاقبة والمآل، فراجع مثلاً أحكام صلاة الجنائز والزكاة والإرث وغيرها، تجد الفوارق جلية. وعلى سبيل المثال لا الحصر، جاء في (مختلف الشيعة) للعلامة الحلي ج ٩ ص ٨٥ عن المفيد: «إن المؤمن يرث أهل البدع من المعتزلة والمرجئة والخوارج والحشوية، ولا ترث هذه الفرق أحداً من أهل الإيمان، كما يرث المسلم الكافر، ولا يرث الكافر أحداً من أهل الإسلام».

(٢) صفات الشيعة للصدوق ص ١٣

(٣) فضائل الشيعة للصدوق ص ١٩

(٤) صفات الشيعة للصدوق ص ٧

(٥) الاحتجاج للطبرسي ج ١ ص ١٢

■ سيبقى الاعتراف من جانب واحد!

ولم يزل أئمة أهل الخلاف يعترفون بأئمتنا (عليهم السلام) ويثنون عليهم بما هم أهلهم، فأبو حنيفة مثلاً يقول في الصادق عليه السلام: «ما رأيت أفقه منه، وقد دخلني منه من الهيبة ما لم يدخلني من المنصور»^(١). ويقول مالك فيه: «ما كنت أراه إلا مصلياً أو صامتاً أو يقرأ القرآن، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عز وجل»^(٢). ويقول الذهبي فيه: «كبير الشأن، من أئمة العلم، كان أولى بالأمر من أبي جعفر المنصور»^(٣). إلى غير ذلك مما استفاض عن هؤلاء وأمثالهم من عظيم المدح والثناء على الأئمة الاثني عشر الأطهار عليهم السلام.

إلا أن أئمتنا (عليهم السلام) لم يبادلوا أئمة أهل الخلاف الاعتراف! ولا سُمع منهم ثناء عليهم، بل سُمعت منهم المذمة لهم، فكان من قولهم فيهم أنهم «الأخابث الصادون عن دين الله»!^(٤)

ولو تتبع المتبع لوجد أن الأمر على هذا قديماً وحديثاً، فلطالما مدح أبو بكر وعمر وعثمان وعائشة؛ بل ومعاوية؛ أمير المؤمنين (عليه السلام) واعترفوا بفضله وحدثوا بمناقبه، أما هو فلم يقابلهم إلا بما هم أهلهم من القدح والإدانة! كقوله وقد سئل عن أبي بكر وعمر: «لا بحق أخذنا! ولا على إصابة أقاما! ولا على دين مضيا! ولا على فتنة خشيا»!^(٥) وقوله لأهل الكوفة: «ولا ذ أهل البغي بعائشة! فقتل حولها من أهل البصرة عالم جسيم، وضرب الله وجه بقيتهم

(١) أسنى المطالب لابن الجزري ص ٥٥

(٢) الشفا للقاضي عياض ج ٢ ص ٤٠٢

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٣ ص ١٢٠

(٤) الكافي للكليني ج ١ ص ٣٩٣

(٥) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج ٢٩ ص ٥٥٨

فأدبروا، فما كانت ناقة الحجر بأشأم عليهم منها على أهل ذلك المصر، مع ما جاءت به من الحوب الكبير في معصيتها ربها ونبيها، واغترارها في تفريق المسلمين، وسفك دماء المؤمنين، بلا بينة ولا معذرة، ولا حجة ظاهرة»^(١).

وبعد هذا لا يكون غريباً أن ترى بعض علماء المخالفين يُشيدون ببعض علمائنا، كالكليني والمفيد والمرتضى وأمثالهم، وأن يفتي شيخ الأزهر الأسبق^(٢) بجواز التعبد بمذهبنا، دون أن يبادلوا بالمثل؛ إشادة أو فتوى.

إن الحق يفرض الاعتراف به، وأهل الحق لن يعترفوا بالباطل وأهله. سيقى الاعتراف من جانب واحد!

■ لا اعتراف حتى مع التقية!

نعم؛ قد يضطر المسلمون في بعض صروف الزمان إلى تسليم الحكم للجائر أو من لا أهلية له حقناً للدماء وتقية على أنفسهم من بطشه أو دفعاً لمفسدة أعظم؛ ريثما يسبب الله تعالى أسباب التخلص منه.

هذا إذا وقع يجب أن يكون أولاً بإمضاء من الحاكم الشرعي، ثم يجب الحرص - ما أمكن - على أن لا يتعدى إلى الاعتراف بشرعية السلطان، ناهيك عن تعظيمه أو تعزيز

(١) المصدر نفسه ج ٣٢ ص ٢٥٢

(٢) محمود شلتوت صاحب الفتوى التي صدرت سنة ١٩٥٩ للميلاد وفيها: «إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنة». وقد أيدها مفتي مصر السابق علي جمعة كما جاء في شبكة إشارة الإخبارية بتاريخ ٥ فبراير ٢٠٠٩ للميلاد إذ قال: «يجوز التعبد بالمذاهب الشيعية ولا حرج، وقد أفتى بهذا شيخ الأزهر الراحل محمود شلتوت، فالأمة الإسلامية جسد واحد، لا فرق فيه بين سني وشيعي، طالما أنّ الجميع يصلي صلاة واحدة ويتجه لقبله واحدة، وإن الشيعة كانوا دائماً جزءاً لا يتجزأ من الأمة الإسلامية».

سلطانه، كما يفعله اليوم بعض الخونة وطلبة الدنيا من المعممين والوجهاء وغيرهم في غير بلد، خاصة في الجزيرة المحمدية وإيران، فما زال هؤلاء الفسقة يُسبغون على السلاطين رداء الشرعية ويكيلون لهم الثناء والتعظيم، طمعاً في المنافع الشخصية أو تمضية لها.

إن صفوة المسلمين من الرافضة الأبرار يجب أن لا يكونوا من هذا الصنف الرخيص حتى وإن اضطروا إلى مهادنة السلطان، فهذا إمامهم الحسن المجتبي (عليه السلام) قد هادن معاوية اللعين وسلّمه الحكم لمكان التقية، إلا أنه لم يعترف بشرعيته أبداً، فكان أن اشترط في وثيقة الصلح التي رواها أهل الأخبار كالصدوق عليه الرحمة؛ أن لا يسمّيه (أمير المؤمنين) إيداناً بأنه وإن سلّم الحكم؛ إلا أنه ليس بحاكم شرعي.^(١) وهذا درس حسني لنا يهتف بنا أن لا اعتراف حتى مع التقية!

والحاصل؛ أن المطالعة الدقيقة للتاريخ تكشف بوضوح عن أن سيرة أصحابنا الأوائل كانت أقرب إلى منهاج أئمتنا الأطهار (صلوات الله عليهم) من سيرة الأواخر، فلقد كان الأوائل أكثر صلابة في دينهم ومجاهرة برفضهم ومباينة لمخالفهم، ولقد حققوا بذلك أعظم الإنجازات في المحافظة على الدين؛ ونشر التشيع والرفض؛ وإنارة سبيل الهدى والفلاح، رغم ما كان يُستنزف من دمائهم ويُنتهك من حرمتهم، فلقد صبروا وقاوموا وضحووا، أثابهم الله خير الثواب.

وليس للأواخر عذر في التخلف عن أولئك الرواد الصالحين أو الانحراف عن سيرتهم، ولا سيما أن ما تحمله أولئك وعانوه وكابدوه ليس له مثيل، فلم تكن لهم وقتئذ حكومات ولا جيوش، ولا أحزاب ولا قوى، ولا ما يدفعون به عن أنفسهم الذبح والسجن

(١) راجع علل الشرايع للصدوق ص ٢٤٩

والاضطهاد، أو يؤمنهم من المطاردات والملاحقات وقطع الأرزاق. بينما الأواخر اليوم في راحة من ذلك كله لتحسن أحوالهم وتعظيم قدراتهم على الإجمال.

التوطئة التاسعة

■ الشيعة رافعو لواء المعارضة

منذ أن وقع الانقلاب المشؤوم في سقيفة بني ساعدة، إذ جيء بأبي بكر بن أبي قحافة خليفة على خلاف أمر الله ورسوله صلى الله عليه وآله؛ والشيعة يرفعون لواء المعارضة ويجاهدون بألستهم وأيديهم لإحباط سيطرة هذا الانقلاب على الأمة.

وقد بدأ هذا الجهاد العظيم منذ الأيام الأولى من وقوع الانقلاب، بإعلان الرفض له والتشهير برموزه المنافقين وفضحهم والتصدي لهم، ودعوة الأمة إلى التزام الوصية المقدسة للنبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) باتباع خلفائه وأوصيائه الشرعيين الاثني عشر صلوات الله عليهم أجمعين.

وكان من أوائل المجاهدين العظماء المقاومين لهذا الانقلاب الغادر؛ أولئك الصفوة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين هرعوا إلى الخليفة الشرعي علي بن أبي طالب (عليهما السلام) يستفتونه عن واجبهم بعد وقوع الانقلاب المشؤوم، فحرّضهم الإمام على أن يتصدّوا لأبي بكر وقيموا الحجة عليه وعلى أعوانه الغدرّة، قائلاً: «انطلقوا بأجمعكم إلى الرجل فعرفوه ما سمعتم من قول نبيكم، ليكون ذلك أوكد للحجة وأبلغ للعدر، وأبعد لهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا وردوا عليه».^(١)

(١) الاحتجاج للطبرسي ج ١ ص ٩٨ عن الصادق عليه السلام

ويحدثنا الإمام الصادق (عليه السلام) أن هؤلاء الثلاثة الذين قطعوا على أبي بكر خطبته يوم الجمعة وفضحوه؛ كانوا إثنا عشر رجلاً، من المهاجرين: خالد بن سعيد بن العاص وكان من بني أمية، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وبريدة الأسلمي. ومن الأنصار: أبو الهيثم بن التيهان، وسهل وعثمان ابنا حنيف، وخزيمة ابن ثابت ذو الشهادتين، وأبي بن كعب، وأبو أيوب الأنصاري.

كما يحدثنا الإمام الصادق (عليه السلام) عن وقوع مشادات كلامية حادة يومذاك بلغت مبلغ السباب والطعن في الأصول، خاصة حين تدخل اللفظ الغليظ عمر بن الخطاب محاولاً الدفاع عن صاحبه أبي بكر وستر سوءاته، فلقد قال عمر لخالد بن سعيد: «اسكت يا خالد فلست من أهل المشورة ولا ممن يقتدى برأيه. فقال له خالد: بل اسكت أنت يا ابن الخطاب فإنك تنطق على لسان غيرك، وأيم الله لقد علمت قريش أنك من الأمها حسبا! وأدناها منصبا! وأخسها قدرا! وأخلها ذكرا! وأقلهم عناء عن الله ورسوله! وإنك لجبان في الحروب! بخيل بالمال! لثيم العنصر! مالك في قريش من فخر! ولا في الحروب من ذكر! وإنك في هذا الأمر ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ * فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ». فأبلس عمر وجلس خالد بن سعيد»^(١).

وقال سلمان - بعدما وُجِّعَ عنقه ظلماً - موجهها كلامه لأبي بكر: «ما عذرک في تقدُّمک علی من هو أعلم منك وأقرب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأعلم بتأويل كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ومن قدَّمه النبي (صلى الله عليه وآله) في حياته وأوصاكم به عند وفاته؟! فنبذتم قوله، وتناسيتم وصيته، وأخلفتم الوعد، ونقضتم العهد، وحللتهم العقد الذي كان

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٩٩

عقده عليكم من النفوذ تحت راية أسامة بن زيد حذرا من مثل ما أتيتموه، وتنبئها للأمة على عظيم ما اجترتموه، من مخالفة أمره، فعن قليل يصفو لك الأمر، وقد أثقلت الوزر، ونقلت إلى قبرك، وحملت معك ما كسبت يدك»^(١).

وقال المقداد: «يا أبا بكر! ارجع عن ظلمك! وتب إلى ربك! والزم بيتك! وابك على خطيئتك! وسلّم الأمر لصاحبه الذي هو أولى به منك، فقد علمت ما عقده رسول الله (صلى الله عليه وآله) في عنقك من بيعته.. اتق الله وبادر بالاستقالة قبل فوتها، فإن ذلك أسلم لك في حياتك وبعد وفاتك، ولا تركز إلى دنياك ولا تغرنك قريش وغيرها، فعن قليل تضمحل عنك دنياك، ثم تصير إلى ربك فيجزيك بعملك، وقد علمت وتيقنت أن علي بن أبي طالب (عليه السلام) هو صاحب الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فسلّمه إليه بما جعله الله له، فإنه أتم لسترك وأخف لوزرك»^(٢).

وقال بريدة الأسلمي: «إنا لله وإنا إليه راجعون! ماذا لقي الحق من الباطل! يا أبا بكر! أنسيت أم تناسيت؟! وخدعت أم خدعتك نفسك؟! أم سوّلت لك الأباطيل؟! أولم تذكر ما أمرنا به رسول الله (صلى الله عليه وآله) من تسمية علي (عليه السلام) بإمرة المؤمنين والنبي (صلى الله عليه وآله) بين أظهرنا؟ وقوله له في عدة أوقات: هذا علي أمير المؤمنين وقاتل القاسطين؟ اتق الله! وتدارك نفسك قبل أن لا تدركها، وأنقذها مما يهلكها، واردد الأمر إلى من هو أحق به منك، ولا تتأدّ في اغتصابه، وراجع وأنت تستطيع أن تراجع، فقد محضتكم النصيح، ودللتك على طريق النجاة، فلا تكونن ظهيرا للمجرمين»^(٣).

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ١٠٠

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٠١

(٣) المصدر نفسه

وهكذا توالى كلمات هؤلاء المحتجين كقذائف على رؤوس أبي بكر وعمر وأبي عبيدة، وهم المنقلبون الثلاثة الكبار الذين أبرموا أمر السقيفة، فلم يسكتوا عنهم ولا عمن تابعهم وشايعهم، وخطوا بذلك خط الرفض والرافضة من أول يوم.

■ البطش لم يرهب الشيعة الأوائل ولا أثناهم منطق «الوحدة الإسلامية»!

ولم يُرهَب بطش السلطة الانقلابية أحداً من هؤلاء الرافضة الأوائل الأبطال، بل زادهم البطش إصراراً على التحدي والمقاومة، وامتألت نفوسهم بروح الثأر والانتقام يوم طال ذلك البطش سيدة النساء فاطمة الزهراء (عليها السلام) وانتهكت حرمتها في تلك الحادثة المعروفة، أعني هجوم أولئك الأوغاد بقيادة ابن صهاك واقتحامهم دارها لإجبار بعلها على البيعة.

ومن طاهم البطش سيدة مؤمنة أخرى، هي أم فروة الأنصارية رضوان الله عليها، التي كانت تقوم بتحريك بطولي يجيب عنه معظم الرجال من شيعة هذه الأيام! وكان لهذا التحرك من القوة والتأثير ما أخرج أبا بكر عن طوره حتى قتل هذه السيدة!

يحدثنا سلمان الفارسي قائلاً: «إن امرأة من الأنصار يقال لها أم فروة كانت تحضُّ على نكث بيعة أبي بكر وتحث على بيعة علي عليه السلام. فبلغ أبا بكر ذلك، فأحضرها واستتابها فأبَّت عليه. فقال: يا عدوة الله! أتخصين على فرقة جماعة اجتمع عليها المسلمون؟ فما قولك في إمامتي؟ قالت: ما أنت بإمام! قال: فمن أنا؟ قالت: أمير قومك، اختارك قومك وولوك، فإذا كرهوك عزلوك، فالإمام المخصوص من الله ورسوله (صلى الله عليه وآله) يعلم ما في الظاهر والباطن، وما يحدث في المشرق والمغرب من الخير والشر، وإذا قام في شمس أو قمر فلا فيء له. ولا تجوز الإمامة لعابد وثن، ولا لمن كفر ثم أسلم، فمن أيهما أنت يا بن أبي قحافة؟! قال: أنا من الأئمة الذين اختارهم الله لعباده! فقالت: كذبت على الله! ولو كنت ممن اختارك الله

لذكرك في كتابه كما ذكر غيرك، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾. وبلك إن كنت إماماً حقاً فما اسم السماء الدنيا الأولى، والثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة؟ فبقي أبو بكر لا يحير جواباً. ثم قال: اسمها عند الله الذي خلقها! قالت: لو جاز للنساء أن يعلمن الرجال لعلمتكن. فقال: يا عدوة الله! لتذكرن اسم سماء سماء وإلا قتلتك! قالت: أبالقتل تهددني؟ والله ما أبالي أن يجري قتلي على يد مثلك، ولكني أخبرك، أما السماء الدنيا الأولى فأيلول، والثانية زنبول، والثالثة سحقوم، والرابعة ذيلول، والخامسة ماين، والسادسة ماحيز، والسابعة أيوث. فبقي أبو بكر ومن معه متحيرين، وقالوا لها: ما تقولين في علي؟ قالت: وما عسى أن أقول في إمام الأئمة، ووصي الأوصياء، من أشرق بنوره الأرض والسماء، ومن لا يتم التوحيد إلا بحقيقة معرفته، ولكنك ممن نكث واستبدل! وبعث دينك بدنياك! قال أبو بكر: اقلوها فقد ارتدت! فقتلت! ^(١)

وأنت ترى في هذا الخبر أن هذه السيدة الرافضية كانت من الإيمان والوعي على مستوى عصمها من الانخداع بالتليسات، فإن ابن أبي قحافة حاول الاحتجاج عليها بأنها تعمل على شرح وحدة المسلمين، في قوله لها: «يا عدوة الله! أتخضين على فرقة جماعة اجتمع عليها المسلمون»! ^(٢) إلا أن أم فروة (رحمها الله) لم تستسلم لهذه المخادعة التي يلجأ إليها اليوم كل من يؤله قول الحق والانتصار لأهله.

(١) الخرائج والجرائح للقطب الراوندي ج ٢ ص ٥٤٨

(٢) وهو المنهج المغلوط لكثير من مدعي التشيع اليوم الذين يجاربون ظلماً أهل العالم الأول من الرافضة الأبرار الذين أبوا إلا أن يمضوا على سيرة العظماء الأوائل في إعلان البراءة، ومنهم هذه السيدة الجليلة أم فروة الأنصارية رضوان الله عليها.

■ كان المخالفون يخافون ذكر الثلاثة بخير في العصور الذهبية للشيعة!

وهكذا لم يستسلم الشيعة على مرّ العصور، فواصلوا طريق إعلان الرفض والبراءة رغم الكلفة الباهظة التي دفعوها من أرواحهم، حتى استطاعوا في عصورهم الذهبية ترويض مخالفيهم على تقبّل هذا الأمر الواقع والتعايش معه، بل والخضوع له إلى حدّ الامتناع عن الشنّاء على أبي بكر وعمر وعثمان أو الترضي عنهم، لا شيء سوى التقية من الشيعة والخوف من ردة فعلهم!

ولسنا نعني بعصورهم الذهبية زمان كانت السلطة بأيديهم، بل زمان كانت السلطة بأيدي أعدائهم، إلا أنهم كانوا لا يهابونها ولا يهابون أتباعها من مخالفيهم، فالأمر إلى انعكاس الحال حتى هابتهم السلطة وهابهم المخالفون!

إليك مثلاً ما ذكره المزي عن أحد رجالهم الثقات في القرن الثاني، وهو خلف بن تميم إذ قال: «قال ابن المبارك: من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ بالكوفة، فليقل: رحم الله عثمان! قال خلف: فدخلتها يوماً، فأردتُ أن أجعل إصبعي في أذني فأنادي بها، فالتفتُ فإذا موازينهم وسنجاتهم فقلت: يا خلف؛ الساعة تقوها فيرمونك، فاربح نفسك!»^(١)

(١) تهذيب الكمال للمزي ج ٨ ص ٢٧٨، وسنجاتهم جمع السَّنجة، وهي فارسية معرّبة تعني الرطل. أي أن خلف بن تميم يتقن أن الشيعة في الكوفة إذا سمعوه يترحم على عثمان فسينهلون عليه رميّاً بالموازين والأرطال الثقيلة فيهلك، فقال في نفسه: «يا خلف؛ الساعة تقوها فيرمونك، فاربح نفسك!» وهكذا عمل بالتقية وربح نفسه وقد زهد في «الشهادة» التي أرادها له ابن المبارك إذ لم يجرؤ على ذكر عثمان بالرحمة وسط شيعة العراق!

ولا يفوتنا ذكر أن المخالفين رووا في عدة مصادر أن ذكر عثمان بالخير أو الرحمة أو الزعم بأنه شهيد؛ كان يعتبر جريمة وخرقاً للقانون في عهد حكومة أمير المؤمنين (عليه السلام) في العراق! فكانت الشرطة تقبض على هذا القائل وتحاكمه عند أمير المؤمنين عليه السلام. فراجع (تاريخ واسط للثقة الثبت الإمام عندهم أسلم ابن سهل الرزاز برقم: ٦١٦ والمطالب العالية لابن حجر برقم: ٤٠٣٦ ومعرفة الصحابة لأبي نعيم برقم: ٦٧٨٤ ومسند أبي يعلى الموصلي برقم: ١٥٩٠ وعنه ابن الأثير في أسد الغابة برقم: ٢١٥٥) وفيها: «أُتي علي =

ولخلف بن تميم هذا شيخٌ من أهل الكوفة يُدعى محمد بن عبد العزيز التيمي، إلا أنه كان من الأقلية البكرية، ويتعصب لأبي بكر لكونه من قبيلته نفسها؛ بني تيم. وقد اضطرت ثقافته الجهر بالبراءة التي كانت شائعة في شيعة الكوفة إلى أن يخرج منها ذليلاً وهو يقول: «لا أقيم ببلد يُشتم فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم!»^(١) وهذا يزيدك يقيناً في نجاح الشيعة في الهيمنة على الأوضاع العامة بما يضطر مخالفهم إلى أن يخرسوا في ديارهم عن مدح الطغاة أو يخرجوا صاغرين! هذا مع أن قوة السلطة حينئذ لم تكن بيد الشيعة بل كانت بيد عتاة بني العباس وولاتهم من أهل الخلاف! بيد أن القوة الحقيقية كانت بيد الشيعة؛ أعني قوة الإيمان والرفض، فكان الله معهم إذ كانوا رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه وما بدّلوا تبديلاً، وألقى في قلوب مخالفهم الرعب، فريقاً يُخرسون ويُخرجون فريقاً!^(٢)

= ابن أبي طالب رضي الله عنه برجل فقيل له: إن هذا يزعم أن عثمان رضي الله عنه في الجنة! فقال له علي: وما يدريك؟... أن رجلاً بالكوفة شهد أن عثمان رضي الله عنه قُتل شهيداً، فأخذته الزبانية فرفعه إلى علي رضي الله عنه وقالوا: لولا أن تنهانا أو نبيتنا لا نقتل أحداً لقتلناه! هذا زعم أنه يشهد أن عثمان رضي الله عنه قُتل شهيداً!... ذكر رجلان عثمان رضي الله عنه فقال أحدهما: قُتل شهيداً. فتعلّق الآخر فأتى به علياً رضي الله عنه فقال: هذا يزعم أن عثمان قُتل شهيداً! فقال له علي رضي الله عنه: أقلت ذلك؟... لما قدم علي بن أبي طالب البصرة وكان أصحابه لا يسمعون أحداً ذكر عثمان بخير إلا ضربوه، بلغ ذلك علياً فقال: من رأيتموه يفعل ذلك فأتوا به. فسمعوا شيخاً أعرابياً وهو يقول: أشهد أن عثمان قُتل شهيداً. فقال له علي: وما علمك أن عثمان قُتل شهيداً.. إلخ». وقد أبطنا في سلسلة محاضراتنا بعنوان: (حمل الخطايا) ما زادوه في هذه الروايات للإيهام بأن أمير المؤمنين (عليه السلام) اضطّر في آخر الأمر للإفراج عن هؤلاء المقبوض عليهم لأنهم أقاموا الحجة عليه بأن عثمان شهيد من أهل الجنة!

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ج ٨ ص ٦

(٢) محاكاة للأدب القرآني في قوله تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُواهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَاحِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾. (الأحزاب: ٢٤ - ٢٧)

ولئن أحجم خلف بن تميم عن الترحم على عثمان وسط شيعة الكوفة خوفاً منهم؛ فقد جازف رجل آخر وأقدم على الترحم على مَنْ هو عند الشيعة أسوأ من عثمان، وهذا الرجل له شأن عند أهل الخلاف، إذ يصفه الذهبي «بالإمام الحافظ البارع الأوحد الحجة»،^(١) أحد حفاظهم في القرن الخامس ويُدعى أبا عبد الله محمد بن عبد الله الشامي الصوري.

يحدثنا ابن الجوزي أن هذا الرجل قدم الكوفة ليسمع من شيوخها الحديث، إلا أنه ارتكب مجازفة بترحمه على الطاغيتين أبي بكر وعمر، الأمر الذي جعل الشيعة يشعرون عليه، ولولا أنه التجأ إلى أحد زعمائهم من العلويين فأجاره لكان قد قُتل! قال ابن الجوزي: «ومضى إلى الكوفة فسمع بها من أربعمئة شيخ، وكان يظهر هناك السنة ويترحم على أبي بكر وعمر، فنار أهل الكوفة ليقتلوه! فالتجأ إلى أبي طالب بن عمر العلوي، وكان أبو طالب يسب الصحابة، فأجاره».^(٢)

ولم يثر أهل الكوفة على هذا الصوري سوى لأنه جاء بأعظم المنكرات عندهم، وهو الترحم على رجلين خانا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأسساً أساس الجور والظلم على أهل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم. ولو أن هذا الصوري كان متقياً لله لما ترحم عليهما مع ظهور انقلابهما على الدين، ولما تعمّد أن يستفز الشيعة في بلادهم كالكوفة وهو يعلم ما في صدورهم من السخط على أبي بكر وعمر، ويعلم أن بلادهم لا يُسمع فيها إلا السب واللعن لهما، فإن لم يكن ذلك رائقاً لهواه فليس له إلا الخروج كما فعل محمد بن عبد العزيز التيمي الذي تقدّم ذكره.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٧ ص ٦٢٧

(٢) المنتظم لابن الجوزي ج ١٥ ص ٣٢٢

■ كيف كان الشيعة لا يسكتون عن لعن الثلاثة رغم المذابح!

على أن العراق لم يكن وحده بلاد شيوع ثقافة الجهر بالبراءة بما تقتضيه من سب وشتم ولعن لرموز الطغيان والنفاق والانحراف؛ فأينما كان الشيعة كانت بلادهم كذلك، تجد صوت الرفض والبراءة فيها عالياً، ولذا كان الجبابة يرتكبون أبشع المذابح فيهم، كالمذبحة المهولة التي رواها ابن الأثير في حوادث سنة سبع وأربعمئة قائلًا: «في هذه السنة في محرم؛ قُتلت الشيعة بجميع بلاد إفريقية! وكان سبب ذلك أن المعز بن باديس ركب ومشى في القيروان والناس يسلّمون عليه ويدعون له، فاجتاز بجماعة فسأل عنهم، ف قيل: هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر. فقال: رضي الله عن أبي بكر وعمر! فانصرفت العامة من فورها إلى درب المعلّى من القيروان، وهو مكان تجتمع به الشيعة، فقتلوا منهم! وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم طمعا في النهب! وانبسطت أيدي العامة في الشيعة! وأغراهم عامل القيروان وحرّضهم! وسبب ذلك أنه كان قد أصلح أمور البلد، فبلغه أن المعز بن باديس يريد عزله فأراد فساده، فقتل من الشيعة خلق كثير! وأحرقوا بالنار! ونهب ديارهم! وقتلوا في جميع إفريقية! واجتمع جماعة منهم إلى قصر المنصور قريب القيروان فتحصّنوا به، فحصرهم العامة وضيّقوا عليهم، فاشتد عليهم الجوع فأقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم! حتى قُتلوا عن آخرهم! ولجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع فقتلوا كلهم»^(١)

ومن الحوادث التي توقفت على أن الشيعة ما كانوا يقبلون أبداً بأن يُذكر أبو بكر وعمر في محضرهم بخير، ما جرى في ربيع الأول من سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة ببغداد، حين أظهر قائد عسكري بكرى عزمه على الغزو وأخذ من خليفة بني العباس منشوراً بذلك كما تسلّم منه علم «الخلافة»، فخرج وبين يديه الرجال المسلّحون، والتف حوله خلق عظيم من

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٧ ص ٦٥٩

أهل الخلاف يهتفون له، وقصد القوم بأجمعهم أحياء الشيعة في بغداد في استعراض للقوة واستفزاز متعمّد وهم «يصيحون بذكر أبي بكر وعمر»!

ومع أنه كان للشيعة آنذاك أن يسكتوا تقية وإبقاءً على أنفسهم؛ إلا أنهم لشدة تمسكهم بمبادئهم الرافضية ما كانت أنفسهم تسمح بأن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام من يثني على أبي بكر وعمر، إذ كانوا يعتبرون ذلك إهانة لدينهم ومساساً بكرامتهم، ولذا فإنهم عندما رأوا ذلك الاستعراض العسكري الاستفزازي الذي يُصاح فيه بذكر الجبتين شاروا وأخذوا يرمون العساكر، رغم أن العاقبة كانت معروفة سلفاً بأنها ستأتي عليهم، إذ لا تكافؤ في ميزان القوة بين من يملك السلاح؛ وبين من لا يملك إلا الحجر. وهذا ما حصل؛ فلقد هجم الجند عليهم مع من انضم إليهم من العامة، وقتلوهم مقتلة عظيمة، أحرقوا فيها دورهم، وهدموا فيها أسواقهم، على مدى يومين متتاليين.^(١)

والعجيب أن مثل هذه المجازر الإجرامية لم تكن لثني الشيعة عن مواصلة الجهر بالبراءة من أعداء النبي وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام، بل كانت تزيدهم إصراراً وتحدياً وكأنهم يتعمّدون تقديم القرابين من أرواحهم، ففي بغداد يحدثنا ابن كثير عن استشهاد شاعر الرافضة ابن قرايا (رضوان الله عليه) بتلك الطريقة الهمجية البشعة سنة أربع وسبعين وخمسمئة، حيث لم يكتفِ المجرمون بتقطيع أوصاله بل سحلوه بعد مقتله سحلاً في ساحات بغداد. قال ابن كثير: «وفيها احتيط ببغداد على شاعر يُنشد للروافض يُقال له: ابن قرايا، يقف في الأسواق ويذكر أشعاراً يضمنّها ذم الصحابة رضي الله عنهم وسبهم وتجويرهم وتهجين من أحبهم، فعُقد له مجلس بأمر الخليفة، واستنطق فإذا هو رافضي جلد داهية! فأفتى الفقهاء بقطع لسانه ويديه، ففعل به ذلك، ثم اختطفته العامة، فما زالوا يرمونه بالآجر حتى

(١) راجع المصدر نفسه ج ٧ ص ٧٤٨

ألقى نفسه في دجله، فاستخرجوه منها وقتلوه حتى مات! فأخذوا شريطاً وربطوه في رجله وطوّفوا به في البلد يجر جرونيه في أكنافها!»^(١)

وقد خلف ابن قرايا (رضوان الله عليه) ابنة مؤمنة رافضية لم تنكل عما كان عليه أبوها الشهيد رغم المقتلة البشعة التي رأتها حلّت به، فيحدثنا التاريخ أنها واصلت المسيرة بشجاعة وإقدام وتحذّر عجب حين كانت تحرّض على لعن عائشة أم الجمل أمام خليفة بني العباس! مع أنه لم تمض إلا ثماني سنين فقط على مقتل أبيها وسحله!

نقل الذهبي أنه في عاشوراء سنة اثنتين وثمانين وخمسمئة «تعدّى الأمر إلى سب الصحابة، وكان أهل الكرخ يصيحون: ما بقي كتمان! وأقاموا ابنة قرايا، وكان الظهير ابن العطار قد كبس دار أبيها وأخرج منها كتباً في سب الصحابة، فقطع يديه ورجليه ورجمته العوام حتى مات، فقامت هذه المرأة تحت منظره الخليفة وحوها خلائق وهي تنشد أشعار العوني وتقول: العنوا راكبة الجمل»^(٢)

ولشعراء الرافضة على مر الدهور القدح الممل في إدانة الزخم الرافضي ومواجهة كل من يفخر بأبي بكر وعمر متبجحاً. فعلى سبيل المثال: ^(٣) لقي صاحب بن عباد رجلاً حجازياً معه رقعة فيها: أنا من أولاد أبي بكر الصديق! فكتب في ظهرها:

أنا رجلٌ مُدُّ كُنْتُ أعرَفُ بالرفضِ	فلا كان بكريُّ لَدَيَّ على الأرضِ!
ذروني وآل المصطفى عترة الهدى	فإنَّ لهم حبي كما لكم بُغْضِي!

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٦ ص ٥٣١

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ج ١٢ ص ٦٦٩

(٣) راجع الصراط المستقيم للنباطي العاملي ج ٣ ص ٧٦

■ عمليات «استشهادية» لإيصال صوت البراءة!

وكثيراً ما كان يقوم الشيعة بأعمال بطولية أشبه بالاستشهادية في اختراق مكامن وأوكار النصب ومساجد الضرار والضلال لإيصال صوت الرفض والبراءة، ومن ذلك ما قام به أحد تلامذة العلامة الحلي أو أصحابه رضوان الله عليهم، وهو الشهيد السعيد علي ابن أبي الفضل بن محمد بن حسين بن كثير رضوان الله عليه، حيث اخترق الجامع الأموي بجرأة نادرة ونادى بأعلى صوته لاعناً أول ظالم ظلم آل محمد عليهم السلام، فألقي القبض عليه واستُجوب عن مقصوده فصّرَح بأنه يقصد أبا بكر! ثم قام برفع صوته وسط الناس بلعنه ولعن عمر وعثمان ومعاوية ويزيد! ولم تُثنه سياط التعذيب عن ذلك مبدياً شجاعة فائقة ونادرة، فآل الأمر إلى أن يضرب المجرمون عنقه ويطوفوا في دمشق برأسه!

يحدثنا عن هذه الجريمة الشنيعة ابن كثير (لعنه الله) الذي كان حاضراً وله يد فيها، إذ يقول في حوادث سنة خمس وخمسين وسبعمئة: «في يوم الإثنين سادس عشر من جمادى الأولى؛ اجتاز رجل من الروافض من أهل الحلة بجامع دمشق بعد صلاة العصر، وهو يسب أول من ظلم آل محمد، ويكرر ذلك لا يفتر، ولم يصل مع الناس،^(١) ولا صلى على الجنازة الحاضرة، بل الناس في الصلاة وهو يكرر ذلك ويرفع صوته به، فلما فرغنا من الصلاة نَبَّهْتُ عليه الناس فأخذوه، وإذا قاضي القضاة الشافعي في تلك الجنازة حاضر مع الناس، فجئتُ إليه واستنطقته: من الذي ظلم آل محمد؟ فقال: أبو بكر الصديق!^(٢) ثم قال جهرَةً والناس

(١) لأنها صلاة العصر والمخالفون يؤخرونها خلافاً للسنّة إذ الأولى تقديمها وجمعها بالظهر ما لم يُفصل بينها بالنوافل، وهذا ما فعله الشهيد (رحمة الله عليه) على ما هو معهود من الشيعة الأبرار.

(٢) لا ريب أن كلمة (الصديق) زيادةٌ من هذا الناصبي ابن كثير الدمشقي، وإلا فأَي شيعي ينعت أبا بكر بالصديق وهو يبرأ منه؟! وأي عاقل يصدق أن مَنْ قام يلعن أول ظالم ظلم محمداً وآل محمد (عليهم السلام) يعترف حين يُستجوب بأن مقصوده هو أبو بكر وهو مع ذلك يسمّيه صديقاً؟!

يسمعون: لعن الله أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد! فأعاد ذلك مرتين، فأمر به الحاكم إلى السجن، ثم استحضره المالكي وجلده بالسياط، وهو مع ذلك يصرخ بالسب واللعن والكلام الذي لا يصدر إلا عن شقي! واسم هذا اللعين علي بن أبي الفضل بن محمد بن حسين ابن كثير، قبحه الله وأخزاه! ثم لما كان يوم الخميس تاسع عشره عُقد له مجلس بدار السعادة، وحضر القضاة الأربعة، وطُلب إلى هنالك، فقَدَّر الله أن حكم نائب المالكي بقتله، فأُخذ سريعاً فُضِّرت عنقه تحت القلعة! وحرقه العامة! وطافوا برأسه البلد! ونادوا عليه: هذا جزاء من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم! وقد ناظرتُ هذا الجاهل بدار القاضي المالكي، وإذا عنده شيء مما يقوله الرافضة الغلاة، وقد تلقى عن أصحاب ابن مطهر أشياء في الكفر والزندقة، قبحه الله وإياهم»^(١)

وهذه الواقعة شبيهة بواقعة أخرى لكن بطلها كان من المهتدين المتشيعين، ألا وهو الشهيد السعيد محمود بن إبراهيم الشيرازي رضوان الله تعالى عليه، الذي كان من طلبة العلم الحنابلة بدمشق، ثم تشييع وترقّض، فسُجن أربعين يوماً حتى يعود عن الرفض فلم يعد، ودخل الجامع الأموي يسبّ أبا بكر وعمر ويلعنهما أمام مرأى الناس! فاعتُقل واقتيد للتعذيب، إلا أنه لم يتراجع، بل ظل وهو تحت التعذيب يجاهر بالولاية تارة وبالبراءة أخرى رغم أن أوباش الناس انهلوا عليه من كل جانب! فآل الأمر إلى أن يضرب الظالمون عنقه ويحرقوا جسده!

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٨ ص ٥٦٠، وابن مطهر هو العلامة الحلي. وأقول: بل قَبَّحَ الله ابن كثير وسائر كهنة البكرية القتلة الذين شركوا في دم امرئ مسلم لا شيء سوى أنه قال الحق في من ظلم محمداً وآل محمد عليهم السلام، فلما عجزوا عن مواجهته بالحجة ذبحوه وطافوا برأسه متبجحين! ومن الجدير ذكره أن العلامة الأميني قد عدَّ هذا الشهيد السعيد من أعيان الشيعة و(شهداء الفضيلة) في كتابه الموسوم بهذا العنوان

يحدثنا عن هذه الجريمة البشعة ابن العماد الحنبلي إذ يقول: «في يوم الخميس سابع عشره من صفر سنة ست وستين وسبعمئة؛ وَجَدَ رجلٌ بالجامع الأموي اسمه محمود بن إبراهيم الشيرازي وهو يسب الشيخين ويصرّح بلعنهما! فُرفِعَ إلى القاضي المالكي قاضي القضاة جمال الدين المسلاتي فاستتابه عن ذلك وأحضر الضّراب، فأول ضربة قال: لا إله إلا الله علي ولي الله، ولما ضُرب الثانية لعن أبا بكر وعمر! فالتهمه العامة فأوسعوه ضرباً مبرحاً بحيث كاد يهلك! فجعل القاضي يكفّهم عنه فلم يستطع ذلك، فجعل الرافضي يسب ويلعن الصحابة! وقال: كانوا على الضلال، فعند ذلك هُمل إلى نائب السلطنة وشُهد عليه قوله بأنهم كانوا على الضلالة، فعند ذلك حكم عليه القاضي بإراقة دمه! فأُخذ إلى ظهر البلد فُضّرت عنقه وأحرقت العامة قبحه الله! وكان ممن يقرأ بمدرسة أبي عمر، ثم ظهر عليه الرفض فسجنه الحنبلي أربعين يوماً فلم ينفع ذلك! وما زال يصرّح في كل موطن يُأمر فيه بالسب! حتى كان يومه هذا أظهر مذهبه في الجامع».^(١)

والحاصل؛ أنه نتيجة لجهاد الشيعة والمتشيعين وتضحياتهم وتنمرهم في إبقاء صوت الرفض والبراءة عالياً؛ فقد نجحوا لا في ترويض مخالفيهم على تقبّل سماع دم رموز السقيفة فحسب؛ بل في إلجائهم إلى العمل بالتقية والسكوت عن مدح أبي بكر وعمر وعثمان وأضراهم لئلا يثور عليهم الشيعة ويقعوا فيهم أكثر! وهذا ما أفتى به صريحاً ابن عربي إذ قال: «إذا جالستَ مَنْ تعرف أنه يقع في الصحابة من الروافض فلا تتعرض ولا تعرّض بذكر أحد من الصحابة الذين تعلم أن جليستك يقع فيهم شيء من الثناء عليهم، فإن لجأه يجعله يقع فيهم، فتكون أنت قد عرّضتهم بذكرك إياهم للوقوع فيهم. يقول الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾!»^(٢)

(١) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ١٠ ص ٣٢٥

(٢) الفتوحات المكية لابن عربي ج ٧ ص ٢٤٧

فانظر إلى أن مدى وصل نجاح الشيعة الأوائل إذ رفعوا عنهم التقية وأوقعوها على رؤوس مخالفيهم! مع أنهم ما كانوا يملكون كثيراً من أسباب القوة التي يملكها الشيعة الآن، فإن لديهم دولاً وجيوشاً، ولا أقل من أنهم يعيشون في عالم تتجه الأمم فيه إلى الحرية، إلا هم! يريد لهم الجبناء ممن يتحكم فيهم اليوم أن يبقوا مكبلين لا يمارسون حقهم الطبيعي في حرية الرأي والنقد بإبدائهم البراءة من أبي بكر وعمر وعائشة والتنديد بهم وبأمثالهم، متذرعين بالتقية التي رفعها أسلافنا عن أنفسهم منذ زمن بعيد قائلين: «ما بقي كتمان» وهم اليوم يريدون إعادتها من جديد!

■ الرافضة الأوائل كانوا أدق فهما لمنهج الأئمة عليهم السلام

لقد كان الرافضة الأوائل أدق فهماً لمقاصد وتوجيهات أئمة الهدى عليهم السلام، ولذا اجتهدوا وضحو كثيراً من أجل أن لا يضطر الإنسان الشيعي إلى التقية، وكان هذا ما فهموه مثلاً من الدعاء الصادر عن الناحية المقدسة والذي يُدعى به في زمان الغيبة للإمام القائم صلوات الله عليه وعجل الله فرجه، والذي فيه: «واجعلنا يا رب من أعوانه، ومقوية سلطانه، والمؤتمرين بأمره، والراضين بفعله، والمسلمين لأحكامه، وممن لا حاجة له إلى التقية من خلقك».^(١)

وحين نظر الرافضة الأوائل في سيرة أئمتهم عليهم السلام؛ تعلموا منهم أن «يتركوا التقية في ذم أئمة الضلال ولعنهم» فإنهم كثيراً ما كانوا يفعلون ذلك كما أفاده الحر العاملي رضوان الله تعالى عليه.^(٢) وتعلموا منهم أن لا يبالوا بإسقاط الخلق في ذلك، فقد أعطاهم

(١) مصباح المتجهد للشيخ الطوسي ص ٤١٥ والبلد الأمين للكفعمي العاملي ج ١ ص ٣٠٨ في الدعاء لصاحب الأمر (صلوات الله عليه) في زمان الغيبة، وتجده في مفاتيح الجنان وسائر كتب الأدعية.

(٢) الفوائد الطوسية للحر العاملي ص ٤٦٨، وقد ذكرنا في (تحرير الإنسان الشيعي) شواهد عديدة على هذا.

إمامهم الصادق (عليه السلام) دعاءً ثميناً فيه: «وأسألك القوة في طاعتك ... والتحرّي لكل ما يرضيك عني في إسقاط خلقك التماساً لرضاك».^(١)

كما كان الرافضة الأوائل أعمق إدراكاً لسيرة أئمة الهدى عليهم السلام، ففهموا أنهم وإن اضطروا إلى العمل بالتقية إلا أنهم ما توانوا عن البيان والتبليغ، والوعظ والتذكير، ومواجهة الباطل ورموزه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما كانت تقيتهم أشبه باستراحة محارب مضطر إلى الكفّ، ومع ذاك فإنه يقتصر حينئذ على أقله مما لا بد منه، فإن كانت التقية مثلاً تضطره إلى كف يده فإنه يقتصر على ذلك ولا يكف لسانه حتى وإن عرّضه هذا إلى شيء من المخاطر أو الخسائر الدنيوية، لكيلا تكون تقيته حينئذ عن ذل وضراعة، أو جزع ونكول، أو مداينة ووهن. ألا ترى أن أمير المؤمنين (عليه السلام) وإن اضطر إلى العمل بالتقية إلا أنه ما عمل بها ضارعاً ولا ذليلاً؛ ولا كفّ لسانه عن القوم جُبناً أو خوفاً، بل لقد حمل عليهم يخوفهم، غير محجم عن مجاهدتهم، ولا مستكين عن طلب حقه منهم، ولا واهن لما أصابه منهم، فكانت تقيته مقتصرة على أقلّ الكف مما كان ضرورياً، وهو كف اليد فقط. وهذا ما بيّنه لنا الإمام الهادي (عليه السلام) حين وقف لزيارة جده أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم الغدير في السنة التي أشخصه فيها المعتصم العباسي لعنه الله، تلك الزيارة التي يروينا عن الهادي ابنه الزكي العسكري عليهما السلام، وفيها: «وأشهد أنك ما اتّقيت ضارعا، ولا أمسكت عن حقك جازعا، ولا أحجمت عن مجاهدة عاصيك ناكلا، ولا أظهرت الرضا بخلاف ما يرضى الله مDAHنا، ولا وهنت لما أصابك في سبيل الله، ولا ضَعُفْتَ ولا استكنت عن طلب حقك مراقبا. معاذ الله أن تكون كذلك! بل إذ ظلمت فاحتسبت

(١) الكافي للكليني ج ٢ ص ٥٩١

ربك، وفوّضت إليه أمرك، وذكّرت فما ذكّروا، ووعظت فما اتّعظوا، وخوفتهم الله فما تخوّفوا»^(١).

هكذا اقتفى الشيعة الأوائل سيرة أئمتهم عليهم السلام، فما اتّقوا ضارعين ولا أمسكوا جازعين ولا أحجموا عن المجاهدة ناكلين، فاستطاعوا بعد حين أن يقلبوا المعادلة إلى أن اضطروا خصمهم لأن يتّقي من بأسهم! وإن الواجب علينا اليوم أن لا نهدر تلك الإنجازات والتضحيات العظيمة التي حققها الرواد الأوائل منا، وأن لا نعود بالأمة الشيعية إلى الوراء، بل أن نواصل كسر القيود وتخطيمها إعلاءً لكلمة الله تعالى، فإن تخطيم الرمزية الكاذبة لأبي بكر وعمر وعائشة ومن إليهم بات اليوم ضرورة إسلامية قصوى، لإنقاذ هذه الأمة من رزايا البدع والمنكرات ومن شرور الجور والإرهاب. آثمٌ من يحاول منع ذلك، ومقصّرٌ من لا يُسهم فيه ولو بأضعف الإيمان.

لا يمكن ترك المعوّقين منا بلا تأثيم ومحاصرة لثلاً تتباطأ وتيرة الإصلاح بتباطؤ وتيرة تخطيم الرمزيات الكاذبة، كما لا يمكن قبول أدنى إعاقة أو تثبيط في هذه المرحلة التطهيرية التاريخية.

(١) المزار لابن المشهدي ص ٢٦٧، و(ضارعاً) أي ذليلاً، و(ناكلاً) أي ضعيفاً جباناً، و(مداهنًا) أي ليتناً مجاملاً، وأما (مراقباً) فتعني هنا مترقباً لشيء من حطام الدنيا، فكان (عليه السلام) منزّهاً عن تلك النقائص كلها، ورأسها أنه لم يعمل بالتقية ضارعاً كما يعمل كثيرٌ من شيعة هذه الأيام ظناً منهم أنهم بذلك يمشون على خطى إمامهم في التقية! ولك أن تراجع كتاب (حل الإشكال) لتقف على شواهد عديدة ذكرناها من سيرة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) تترجم هذا الذي جاء في زيارة يوم الغدير، من تصديّه (صلوات الله عليه) بأحد لسانٍ وأخسّنه لأبي بكر وعمر وعثمان عليهم لعائن الله.

هذه مرحلة تطهيرية مفصلية للواقع العقدي الإسلامي، وتتطلب جدية استثنائية حتى من ضعفائنا. لا محلّ للتعلل بالضعف هنا. إن جاء الجِدْ لزم أن يغدو ضعيفنا ليث غابٍ وصَلَّ وادِّ!

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يقيم أمر الله سبحانه إلا مَنْ لا يُصانع، ولا يُضارع، ولا يتَّبِع المطامع».^(١)

وقال الصادق عليه السلام: «إن المؤمن مَنْ يخافه كل شيء، وذلك أنه عزيز في دين الله، ولا يخاف من شيء، وهو علامة كل مؤمن».^(٢)

وقال الزكي العسكري عليه السلام: «شيعة علي عليه السلام هم الذين لا يبالون في سبيل الله أوقع الموت عليهم، أو وقعوا على الموت»!^(٣)

.. هكذا لنكن!

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

ياسر الحبيب

لندن - في عيد الغدير الثاني

التاسع من ربيع الأول لسنة ١٤٣٧ هـ من الهجرة النبوية الشريفة

(١) نهج البلاغة: الحكمة ١٠٧

(٢) الكافي للكليني ج ٢ ص ٢٣١ وصفات الشيعة للصدوق ص ٣١

(٣) تفسير الإمام العسكري عليه السلام ص ٣١٩

الفهرس

ديباجة..... ٧

التوطئة الأولى..... ٩

■ لماذا ننشغل بالماضي؟..... ٩

■ لماذا لا تُحجَّب التفاصيل الحرجة إكراما للأنبياء عليهم السلام؟..... ١٢

■ إشغال العقل بالماضي ليصفو تفكيره المستقبلي..... ١٤

التوطئة الثانية..... ١٥

■ لماذا لا نتركها وقد ماتت وحسابها على الله؟..... ١٥

■ أهل حفظت حرمة رسول الله ﷺ حتى نحفظ حرمتها؟!..... ١٧

■ بل يضاعف لها العذاب ضعفين..... ١٨

التوطئة الثالثة..... ٢١

■ لماذا لا نستر على الناس معاييهم؟..... ٢١

■ علم الرجال.. علم تتبع معايب الناس!..... ٢٣

■ الشريعة أمرتنا بالإكثار من السب!..... ٢٥

التوطئة الرابعة..... ٢٧

■ لماذا لا نحترم رموز الغير درءاً للفتنة؟..... ٢٧

■ حرية طرح الخلافات تؤدي إلى تصالح طوائف المجتمع..... ٢٨

■ صارحهم لتكسبهم فالإنسان عدو ما يجهل..... ٣٠

- كتاب الله بيننا وبين من يخالفوننا في المنهج الدعوي ٣١
- منهج أنبياء الله ﷺ في التفرقة يصادق على منهجنا! ٣٧
- نعم لشق الصف لإنارة طريق الحق! ٤١
- ألم ينهنا الله عن سب آلهتهم ونهانا الأئمة ﷺ عن سب رموزهم؟ ٤٣
- كيف ربانا الأئمة ﷺ على فضح رموزهم؟ ٤٧

التوطئة الخامسة ٤٩

- التصعيد والاستفزاز للمناعة من الخمول ٤٩
- مرحبا بمخاطر التصعيد ونتائجه ٥٢
- لا بناء للحق إلا بهدم الباطل ٥٣

التوطئة السادسة ٥٩

- لماذا لا نتركهم ودينهم؟ ٥٩
- كتاب الله يشهد بالنجاة للآمرين والناهين لا التاركين ٦٠

التوطئة السابعة ٦٥

- داء عضال أصابنا باسم التقية! ٦٥
- ما هو المعنى الشرعي الصحيح للتقية؟ ٦٩
- أمثلة لسقوط التقية ٧٦
- التقية مشروطة بأن لا تؤدي إلى الفساد في الدين ٨٧
- التقية المغلوطة سلاح يُشهر في وجه صاحب الأمر عليه السلام! ٩٠
- لا للتساهل في التقية ٩١
- إياكم والالتباس في فهم أحاديث التقية ٩٤
- قصة وعبرة عن عاقبة التساهل في التقية فراراً من المصادمة ١٠٤
- أمير المؤمنين عليه السلام جاهر بفضح عائشة! ١٠٦

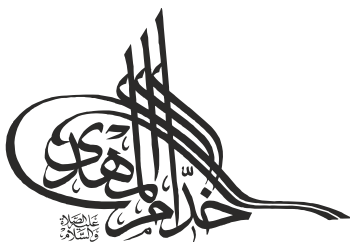
التوطئة الثامنة..... ١٠٩

- المواجهات والمواقف «الطائفية» المستحسنة!..... ١٠٩
- علمائنا ما كانوا يتحاشون التصريح بأننا اللاعنون!..... ١١٤
- لم يسع كبراؤنا الأقدمون إلى التقارب مع المخالفين قط!..... ١١٥
- العشرة الحسنة مع المخالفين ولكن مع الخصومة الدينية!..... ١١٦
- سيبقى الاعتراف من جانب واحد!..... ١١٨
- لا اعتراف حتى مع التقية!..... ١١٩

التوطئة التاسعة..... ١٢٣

- الشيعة رافعو لواء المعارضة..... ١٢٣
- البطش لم يرهب الشيعة الأوائل ولا أثناهم منطق «الوحدة الإسلامية»!..... ١٢٦
- كان المخالفون يخافون ذكر الثلاثة بخير في العصور الذهبية للشيعة!..... ١٢٨
- كيف كان الشيعة لا يسكتون عن لعن الثلاثة رغم المذابح!..... ١٣١
- عمليات «استشهادية» لإيصال صوت البراءة!..... ١٣٤
- الرافضة الأوائل كانوا أدق فهما لمنهج الأئمة عليهم السلام..... ١٣٧

*In the name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful
All praise is due to Allah the Lord of the worlds
May the peace and blessings of Allah be upon Mohammed and his pure progeny
May Allah curse the enemies of the pure household of the prophet from now until the day of Judgement*



Khoddam al-Mahdi organisation
THE MINOR LAND OF FADAK
WINDMILL ROAD
SL3 6HF
UK

www.alqatrah.net
alqatrah@gmail.com

© Khoddam al-Mahdi organisation, 2016

All rights reserved
copyright under berne convention
A CIP record for this title is available from the British Library

ISBN 978-0-9566230-3-4

The Nine Introductions

Yasser Alhabib



Kheddan al-Mahdi organisation